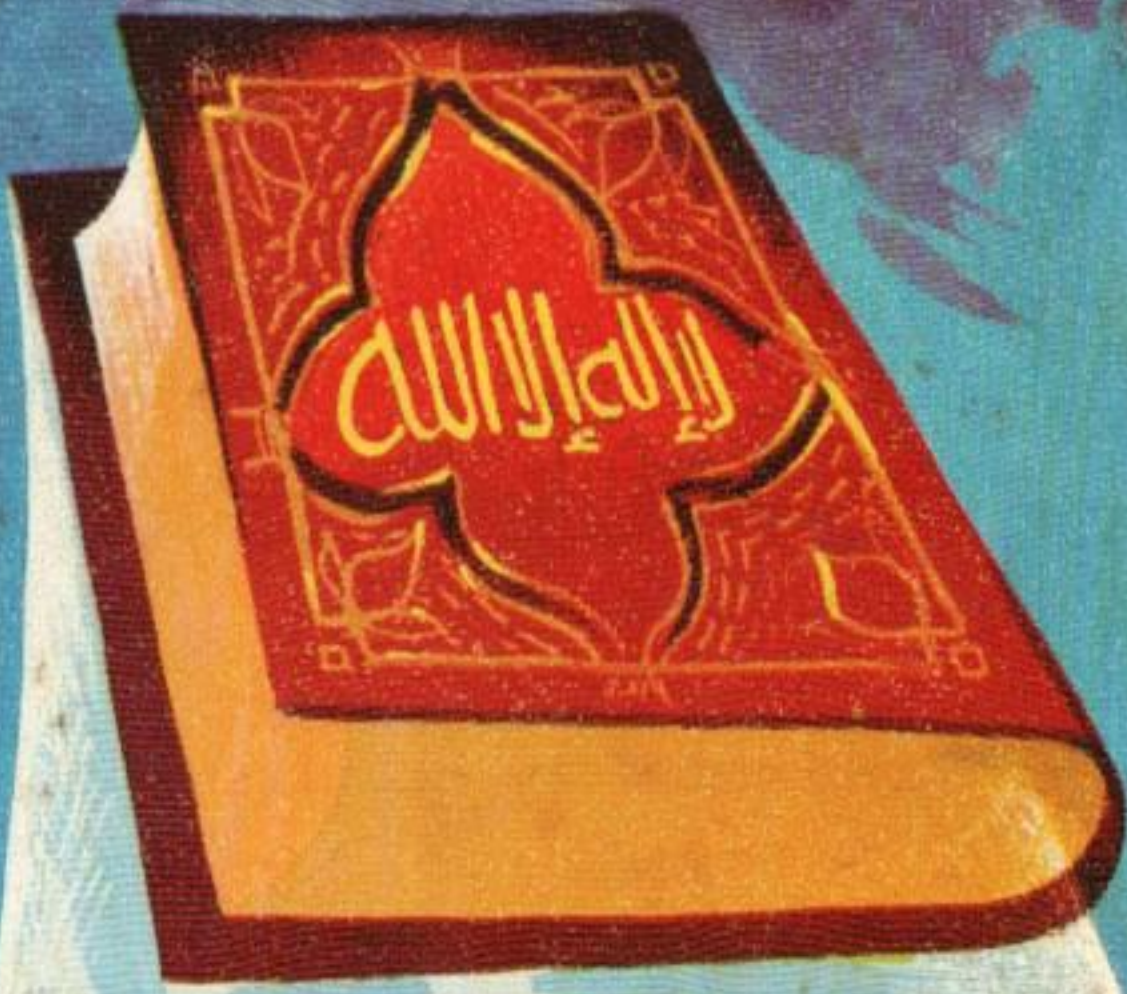


مُحَمَّدٌ سُرُورٌ بْنُ نَافِيفِ بْنِ الْعَابِدِينَ



مَنْ مَجَّ الْأَنْبِيَاءَ

فِي

الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ

وَاللَّهُدَى

لِلنَّشْرِ وَالتَّو

بِرْمَنْجَاهَم

لِلنَّشْرِ وَالتَّو

مِنْهُمْ إِلَى أَنْبِيَاءِ
فِي
الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ

مَنْعُ الْإِنْبِيَاءِ

فِي
الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ

تأليف

محمد سرور بن نايف زين العابدين

دار القرآن

للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م



للنشر والتوزيع

DAR AL- ARQAM

B552, Moseley Road, Balsall Heath,
Birmingham B12 9AD, U.K.

Tel: 021- 449 4422

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ، وَلَكِنْ
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يوسف : ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ .

أما بعد :

فلقد دفعني إلى تأليف هذا الكتاب أمران :

الأول : مارأيت من جهل متفشٍ بين جمهور المسلمين ، وانصراف كثير من الطيبين فيهم عن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله إلى أقوال رجال يخطئون ويصنيون ، وما

اكتفوا بذلك بل قلدوا شيوخهم في الصغيرة والكبيرة ، وتعصبوا لآرائهم تعصباً
ذمياً يخالف طبيعة الدين الاسلامي وجوهره .

وأدت هذه المشكلة إلى زيادة الفارقة بين المسلمين ، واتساع الخرق على
الواقع ، ولهذا فلقد قمت بهذا الجهد الذي أرجو من ورائه رد العاملين في
الحقل الإسلامي إلى التمسك بمنهج أنبياء الله المعصومين ، ونبذ مناهج الرجال
وأقوالهم .

الثاني : نظرت في كتب العقيدة ، فرأيت أنها كتبت في غير عصرنا ، وكانت حلولاً
لقضايا ومشكلات العصر الذي كتبت فيه — رغم أهميتها ورغم تشابه
المشكلات أحياناً — ولعصرنا مشكلاته التي تحتاج إلى حلول جديدة ، ومن
ثم فأسلوب كتب العقيدة فيه كثير من الجفاف لأنه نصوص وأحكام ، ولهذا
أعرض معظم الشباب عنها وزهدوا بها .

وفي المقابل فلقد أعجبنى أسلوب القرآن الكريم ، لأن عرض قضايا
الاعتقاد جاء فيه من خلال عرض سير الأنبياء ، وجهادهم في سبيل الله ضد
المشركين .

مثال : الأصنام : في كتب العقيدة تقرأ معنى الصنم لغة وشرعاً ، وأنواع الأصنام ،
وأدلة حرمتها من الكتاب والسنة ، وأقوال العلماء ، وكل ما يثبت شرعية الاعتقاد بها .
أما الحديث عن الأصنام في القرآن الكريم فله شأن آخر ، فأنت تعرف كل
ما جاء في كتب العقيدة من خلال حوار النبي مع قومه ، فتارة يبين لهم تفاهة الصنم
لأنه لا يضر ولا ينفع ، وتارة يحطم أصنامهم — كما فعل إبراهيم عليه السلام — وتارة
ثالثة تشدك جرأة النبي ، وقوة حجته ، وثباته على الحق رغم إصرار قومه على
قتله ... كل ذلك يتم بأسلوب حركي واقعي جذاب .

لهذا اتبعت أسلوب القرآن الكريم ، وقسمت البحث إلى القسمين التاليين :

القسم الأول : تحدث فيه عن سير معظم أنبياء الله الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، والتزمت بالمنهج التالي :

— اعتمدت على القرآن الكريم ، وما صح من أحاديث الرسول ﷺ ، وأقوال علماء السلف المحققين من خلال شرح الآيات والأحاديث .

— تجنبت روايات أهل الكتاب وسائر المصادر التي اعتمدوا عليها ، لأن الأناجيل المعترف بها أُقرَّت بعد المسيح ببضعة قرون ، ولم يتفق النقاد الغربيون على معرفة كتاب هذه الأناجيل ، وقل مثل ذلك في أسفار التوراة .

— لأذكر كل ماورد في سيرة النبي ، ولا أهتم بالروايات والأخبار الجانبية التي يكثر عامة الناس من السؤال عنها ، ومن الأمثلة على ذلك قولهم :

ما اسم ابن نوح الذي رفض أن يركب مع أبيه في السفينة ؟!

ما اسم زوجة نوح ، وهل أهلكها الله بالطوفان أم قبله ؟!
كم عدد الذين ركبوا في السفينة مع نوح ؟!
وقس على ذلك من الأسئلة .

لم أهتم بمثل هذه الأسئلة لأنه لا توجد روايات صحيحة نعتمد عليها في الجواب على كل سؤال من هذه الأسئلة ، ولا يغير من الحقيقة شيئاً معرفة اسم زوجة نوح بل المهم أنها مشركة خالدة في نار جهنم ، والخير كل الخير فيما بينه لنا القرآن الكريم من أخبار الأمم السابقة ، ولا يجوز أن نحول كتاب الله إلى أُلغاز نتسلى بذكرها .

— حرصت على ربط منهج الأنبياء بواقع عصرنا ، ومن الأمثلة على ذلك : ذكر أوجه التشابه بين الطواغيت الذين حاربوا أنبياء الله وطواغيت عصرنا ، وأيهم أكثر غطرسة وظلماً؟! . وبينت أيضاً أوجه التشابه بين المشكلات التي كانت تعترض أنبياء الله ، والمشكلات التي تعترض الدعاة في عصرنا ، واستخلصت دروساً وعبراً من سيرة كل نبي ورد اسمه في هذا الكتاب ، واعتمدت في كل ذلك على الأدلة العلمية ، لكنني لم أتخل عن عواطفني ومشاعري في كل ما كتبت .

القسم الثاني : تحدثت فيه عن معاني ومدلولات لاإله إلا الله ، لأنها الركن الأول من أركان الاسلام ، بل هي الاسلام كله ، وبها ابتعث الله جميع أنبيائه ، وفي سبيلها شرع الله الجهاد ، ومن موضوعات لاإله إلا الله التي فصلت القول فيها : الألوهية ، العبودية ، النفي والإثبات ، نواقض لاإله إلا الله .

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك ، ويذل فيه أهل معصيتك ، ويؤمر فيه بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر ، اللهم رد المسلمين إلى دينك واهدهم إلى التمسك بمنهاج النبوة ، ووحد اللهم صفوفهم . إنك سميع مجيب .

العاشر من محرم سنة ١٤٠٤ هـ

لما فرغ من خصال الدنيا !!

الصحوة الاسلامية اليوم حديث الناس كل الناس .

فالمؤمنون يسجدون لله شكراً وهم يرون المساجد وقد ازدحمت بالمصلين من الشباب ، والشوارع وقد غصت بالملتحين من الرجال ، والفتيات اللواتي يزينهن اللباس الشرعي الطويل الفضفاض ، والكتاب الاسلامي ، وقد كثر رواجه ، وازداد الاقبال عليه .

وأعداء الاسلام ينظرون إلى هذه الصحوة نظرة شك وريبة ، ولهذا فهم يسخرون كل ما يملكون من دعاية وإعلام لإعطاء صورة مشوهة عنها وعن حملتها ، ويدبرون المؤامرات من أجل وأدها في مهدها :

﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٥).

ومما يضاعف خوف وقلق أعداء الاسلام أن هذا الجيل الذي عاد إلى كنف مولاه كان قد تربى في مدارس ومعاهد وجامعات دول تحكمها أحزاب علمانية ، وشخصيات عسكرية مستبدة لا تحارب إلا الاسلام ، ولا تضطهد إلا الدعاة إلى الله .

ولقد كان الفضل في وجود هذه الصحوة لله أولاً وأخيراً ، فهو سبحانه وتعالى الذي هتك أستار الظالمين الذين كاد الناس يعبدونهم من دون الله ، ومن جهة أخرى قيض جلّ وعلا لأمتنا دعاة من الشباب ، رفضوا الأفكار والعقائد المستوردة ، وزهدوا في مغريات الدنيا وشهواتها ، وتعلقت قلوبهم بكل ما يرضاه الله ويحبه ، ولم يعد يرهبهم تهديد الظالمين ولا وعيدهم .

(٥) — سورة الأنفال ، الآية : ٣٠ .

وعبر هؤلاء الدعاة من الشباب عن رفضهم لهذا الواقع بطرح موضوع « التغيير » على بساط البحث والمناقشة ، ومن أجل وضع حلول لمشكلات التغيير عقدوا الندوات ، وألفوا الكتب ، وأصدروا الرسائل والبيانات .

ومن المؤسف أن الدعاة اختلفوا في هذه المسألة وتعددت مواقفهم واتجاهاتهم . فمنهم من يعتقد أن التغيير لا يكون إلا عن طريق الإقناع العقلي وإشاعة الوعي السياسي .

ومنهم من يرى أن يكون التغيير عن طريق الانتخابات النيابية والنقابية وسائر الأساليب الديمقراطية المعهودة .

وآخرون من الشباب قرعوا طبول الحرب من غير إعداد ، وسارعوا إلى اتخاذ مواقف كان من الأفضل أن يفكروا بها طويلاً ، وما دروا أن الله الذي وعدنا بالنصر قد أمرنا بعدم التقصير في الأخذ بكافة الأسباب المادية .

ورغم تعدد مواقف الدعاة الشباب من التغيير وتضارب هذه الآراء والمواقف ، فإن معظمهم يتفقون على المسألة التالية :

إنهم يقلدون شيوخهم في الخطأ والصواب من أفعالهم ، ويأخذون عنهم كل ما يأمر به أو يدعون له ، ولا يقبلون بهم نقداً أو نصحاً ... وغاية ما يسعون إليه أن يكونوا في مرتبة قرية من مرتبة الشيخ ، وأقول قرية لأن مرتبة الشيخ أو الزعيم الراحل من المحال الوصول إليها ، بل وربما أساءوا الظن بنوايا من تراوده مثل هذه الأفكار .. ورغم ذلك يزعم هؤلاء الدعاة أنهم مؤمنون بضرورة التجديد والتغيير ووجوب التمسك بالبيئة والدليل .

ترى لو جمّد عقل صلاح الدين الأيوبي على مثل هذه الأفكار هل كان قادراً على دحر قوات العدو ، وتطهير القدس وبلاد الشام من دنس الصليبيين والباطنيين العبيدين ؟ ! .

وهل كان شيخ الاسلام ابن تيمية قادراً على إصلاح ما فسد من عقائد الناس ،
وتوحيد كلمة المسلمين وجمعهم على مواجهة التار وما أعقبه من نصر ؟!

يا سبحان الله كيف تلتبس الأمور !! إن هؤلاء الدعاة لو عادوا إلى رشدهم ،
وحرروا عقولهم من التبعية والانقياد ، ونفوسهم من الضعف والجمود لعلموا أنهم
قادرون على بلوغ مراتب ما كان شيوخهم وقادتهم يحلمون بها .. ولا يكلفهم هذا
المقصد إلا أن يصدقوا مع ربهم ، ويأخذوا بالأسباب الشرعية ، والله سبحانه وتعالى
لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

إنها مصيبة والله أن يكون هؤلاء الشيوخ والقادة الذين يقلدهم الشباب — رغم
ما بذلوه من جهد طيب — ، هم الذين فشلوا في توحيد كلمة المسلمين ، كما فشلوا
في تغيير هذا الواقع ، وتحكيم شرع الله في الأرض . فتلامذتهم إذن عاجزون عن تحقيق
أي نصر ، لأنهم لا يخططون لمرحلة أعلى وأرفع من المرتبة التي بلغها شيوخهم وقادتهم .
وقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من التعصب المذهبي الذميم ، وعدّه من الأسباب
التي أوقعت النصارى في الشرك قال تعالى :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا
ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾^(١).

وفي الحديث الصحيح أن النبي تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي :
فقال : « يا رسول الله ، لسنا نعبدهم . قال : أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ،
ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال : بلى . قال ﷺ : فتلك عبادتهم »^(٢).

وغضب ابن عباس من ناس من أصحاب رسول الله ﷺ عندما كان يذكر
لهم أقوال الرسول ، وهم يعارضونه بأقوال لأبي بكر وعمر .

(١) — سورة التوبة الآية ٣١ .

(٢) — رواه أحمد والترمذي وحسنه .

قال ابن عباس :

« يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ﷺ ،
وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ »^(١).

فأين أقوال شيوخ وقادة عصرنا من أقوال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما !؟ .
وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله :

« من نصب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو
من الذين فرقوا في دينهم وكانوا شيعاً »^(٢).

وهذه حال كثير من الجماعات والأحزاب الإسلامية اليوم . إنهم ينصبون
أشخاصاً قادة لهم ، فيوالون أولياءهم ، ويعادون أعداءهم ، ويطيعونهم في كل ما يفتون
لهم دون الرجوع إلى الكتاب والسنة ، ودون أن يسألوهم عن أدلتهم فيما يقولون أو
يفتون .

ومثل هذه المناهج لاتصلح أن تكون أساساً للتغيير ووحدة صف المسلمين ، بل
ولم يحدث أن توحدت كلمة المسلمين على مذهب من المذاهب أو على حزب من
الأحزاب ، رغم المحاولات التي بذلتها بعض الدول من أجل فرض هذا المذهب أو ذاك
الاتجاه القبلي أو الحزبي .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تختصر الطريق ، ونعود إلى التمسك بالمنهج الأول
الذي صلح به أمر هذه الأمة من قبل ، ولا صلاح لأمتنا اليوم إلا به . قال ﷺ :
« إن الاسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ »^(٣).

(١) — فتح المجيد ص ٣٨٣ . وفتاوى شيخ الاسلام ٢٠/٢١٥ .

(٢) — الفتاوى الكبرى لشيخ الاسلام ٢/٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٣) — أخرجه مسلم في صحيحه ، مختصر صحيح مسلم للمنذري ، باب الايمان : ١/٢٤ .

والشاهد في هذا الحديث قوله ﷺ : « وسيعود غريباً كما بدأ » يعني لن تكون عودة الاسلام إلا بالمنهج الذي طبقه المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم ، فلنعد إذن إلى سيرة المصطفى وسير من سبقه من أنبياء الله ورسله عليهم السلام لتتعلم منهم :

- كيف تكون بداية الدعوة إلى الله ، وكيف نقدم الأهم على المهم ؟!
- كيف نواجه الصعوبات التي تعترض طريقنا ، وما هو الأسلوب الأمثل الذي نسلكه في دعوتنا للمشركين والمنافقين من أقوامنا ؟!
- ما الأهداف التي نسعى لتحقيقها ؟!

إننا بأمس الحاجة إلى ذلك النبع الصافي والمصدر العذب الذي نهل منه جميع أنبياء الله ورسله .

﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾^(١).

أجل لسنا مخيرين في العودة إلى التمسك بمنهج أنبياء الله ، بل ولا يجوز أن تتعدد وجهات النظر في هذه المسألة للأسباب التالية :

١ — إن طاعتهم واتباعهم فرض عين على كل مسلم :

ذكر الحق جلّ وعلا عدداً من الأنبياء في سورة الأنعام ، ثم ختم الحديث عنهم بقوله مخاطباً نبيه :

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾^(٢).

(١) — سورة الإسراء ، الآية : ٧٧ .

(٢) — سورة الأنعام الآية : ٩٠ .

وهذا أمر من الله لعبده ونبيه محمد ﷺ أن يسلك ذلك الطريق الذي
سلكه أنبياء الله قبله ، وأن يتخذ منهم قدوة يقتدى بها .

وفي موضع آخر يقول الله لنبيه :

﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾^(١) .

وفي آية ثالثة أرشد الله المؤمنين جميعاً إلى التأسي بإبراهيم ومن آمن معه :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا
برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾^(٢) .

وعن وجوب التأسي بخاتم الأنبياء والرسل يقول جلّ من قائل :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر ، وذكر الله كثيراً ﴾^(٣) .

ولقد كان ﷺ أسوة حسنة للشباب الأمين المستقيم في شبابه ، كما كان
أسوة حسنة للداعية في دعوته ، كما كان أسوة حسنة لكل زوج ووالد في
حنو العاطفة ، وحسن المعاملة ، والتميز الواضح بين الحقوق والواجبات لكل
من الزوج والزوجة والأولاد ، كما كان أسوة حسنة للمربي في تربيته لأصحابه ،
كما كان أسوة حسنة للمجاهد الشجاع ، والقائد المنتصر ، والسياسي
الناجح ، والجار الأمين ، والمعاهد الصادق ، والحاكم المستقيم ، والعالم العامل .

وقصارى القول : إن سيرة رسول الله ﷺ شاملة كل الشمول ، ولهذا

(١) — سورة النحل الآية : ١٢٣ .

(٢) — سورة الممتحنة الآية : ٤ .

(٣) — سورة الأحزاب الآية : ٢١ .

كان أسوة حسنة لكل من كان يرجو الله واليوم الآخر^(١).. ولم ولن تتوفر مثل هذه الصفات في أي زعيم مصلح ، فقد يكون عالماً ولا يكون سياسياً ، أو قد يكون سياسياً وعلى شيء من العلم لكنه أثر عدم الزواج في حياته ، أو ربما كان عالماً مربياً ، لكنه لا يفقه شيئاً في الحروب وفنونها .

وكم رأينا من العلماء المصلحين من كانوا نماذج طيبة في قوة الحجة ، وغزارة العلم ، وكثرة النشاط والحركة ، لكنهم ليسوا كذلك في تربية أولادهم أو في معاملاتهم المادية ، أو في تصوراتهم وعقائدهم .

ولأن رسول الله وإخوانه الأنبياء — عليهم أفضل الصلاة والسلام — كانوا نماذج طيبة لجميع الناس في كل أمر من أمور حياتهم ومماتهم أوجب الله طاعتهم واتباع أوامرهم . قال تعالى :

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾^(٢) .

وقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾^(٣) .

ومن شاقق نبياً من الأنبياء وجحد به وبدعوته أو اتبعه في معظم ما أنزل الله إليه وأنكر أمراً واحداً من أمور الدين فهو من الكافرين المخلدين في نار

(١) — السيرة النبوية دروس وعبر . للدكتور مصطفى السباعي . ص ١٥ و ١٦ بنصرف .

(٢) — سورة النساء الآية : ٦٤ .

(٣) — سورة الحجرات الآية ٢ و ٣ .

جهنم والعياذ بالله . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾^(١) .

وقال :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا ﴾^(٢) .

بل ومن زعم محبة الرسول ﷺ ، وادعى أن قلبه معلق بالقرآن الكريم ،
فهو يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ... ومع ذلك فهو يقدم أقوال الرجال
على قول رسول الله ﷺ — وهو يعلم ذلك — ، ويقدم شرائع الجاهلية على
شريعة الإسلام ، فقد كذب في زعمه وادعائه والإسلام بريء منه . قال
تعالى على لسان نبيه :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٣) .

وقال ﷺ :

« لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ
أَجْمَعِينَ »^(٤) .

أما غير الأنبياء من الشيوخ والقادة فتطيعهم فيما كان فيه طاعة لله ،

(١) — سورة النساء الآية ١١٥ .

(٢) — سورة النساء الآية ٦٥ .

(٣) — سورة آل عمران الآية ٣١ .

(٤) — رواه الشيخان واللفظ لمسلم . انظر مختصر صحيح مسلم . الحديث ٢٣ .

ويجب عدم طاعتهم فيما كان فيه معصية لله ، ولا نأخذ أمور ديننا عنهم إلا بأدلتها ، وليس كل مايفتون به حقاً ... ومن زعم غير ذلك فقد اتخذهم أنداداً من دون الله .

٢ — عصمة الأنبياء :

عصم الله أنبياءه من الشرك والضلالة ، وبرأهم من الزيف والأهواء ، وطهرهم من الفسوق والعصيان ، واختارهم من أشرف الناس نسباً ، وأفضلهم أخلاقاً ، وأكثرهم حِلماً وحكمةً ، وأعظمهم أمانةً ، وأقواهم حجةً ، وأوفرهم ذكاءً . قال تعالى :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۖ ﴾ (١) .

ولم يقترب أحد منهم كبيرةً ، ولم يصدر عنهم ما يخل بالمروءة ... لقد كانوا غرباء في أقوامهم تلحظهم عناية الله ، ويحيطهم برعايته . قال تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ، إِذَا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ ، وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ۖ ﴾ (٢) .

انظر كيف أمر الله رسوله ﷺ أن يسلك مسلك هؤلاء الأنبياء الذين اصطفاهم الله من أبناء جنسهم ، فكانوا أهلاً لهذا الاختيار في صدقهم وإخلاصهم وتجردهم لله .

وفي سورة طه يقص الله على نبيه موسى عليه السلام سيرة ولادته

(١) — سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

(٢) — سورة ص الآيات : ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ .

وحياته ، ومن يتتبع الآيات يشعر برعاية الله تحيط بموسى حينما حلّ وارتحل وهذا هو السر في قوله تعالى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ ^(١) . أي اخترتك لوحى ورسالتى لتصرف على إرادتى .

وفي سير أنبياء الله تشابه كبير في الصدق والاستقامة والاخلاص... ولهذا سارع كثير من الناس إلى تصديقهم منذ الوهلة الأولى، وقبل أن تظهر على أيديهم المعجزات لا شيء إلا لأنهم كانوا قبل النبوة أمناء في أقوامهم لا يقولون إلا حقاً، ولا يتكلمون إلا صدقاً. قال تعالى على لسان نبيه صالح:

﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون
الناصحين ﴾^(٢)

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ ^(٣) .

ونظراً لهذه الصفات التي امتاز بها الأنبياء عن غيرهم ، أوجب الله علينا أن نستسلم وننقاد لكل مايقولون ، ولو كانوا في حالة غضب ، فكل مايصدر عنهم حق لأنه بمثابة الوحي .

﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾^(٤).

(١) — سورة طه الآية ٤ .

(٦) — سورة الأعراف الآية : ٧٩ .

(٣) — سورة الأعراف الآية: ١٠٤ و ١٠٥ .

(٤) — سورة النجم الآية: ٣ و ٤ .

أما غير الأنبياء من الشيوخ والقادة ، فليس لهم عصمة ، ولا نأخذ عنهم إلا ماوافق الحق ، وأقوالهم بحد ذاتها لايصح أن تكون دليلاً ... ويعجبني كلام للعالم المجدد أحمد الدهلوي عن عصمة الأنبياء ننقله فيما يلي لأهميته :

« ثم لابد لهذا العالم أن يثبت على رؤوس الأشهاد أنه عالم بالسنة الراشدة ، وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والإضلال ، ومن أن يدرك حصة من الإصلاح ويترك حصة أخرى لابد منها ، وذلك ينحصر في وجهين ، إما أن يكون راوياً عن رجل قبله انقطع عنده الكمال لكونهم مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم ، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتج عليهم ويفضحهم أن يكون هو الذي انقطع عنده الكلام وأجمعوا عليه ، وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الإجماع يكون فيهم أو تكون الرواية محفوظة عندهم وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذه السنن منها ووجوه منافعها وعلمه الآثام ووجوه مضارها لايمكن أن يحصل بالبرهان ولا بالعقل المتصرف في المعاش ولا بالحس ، بل هي أمور لايكشف عن حقيقتها إلا الوجدان ، فكما أن الجوع والعطش وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لايدرك إلا بالوجدان ، فكذلك معرفة ملائمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق إليها إلا الذوق السليم ، وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه إنما يكون بخلق الله علماً ضرورياً فيه بأن جميع ماأدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة مايقع للمبصر عند الإبصار ، فإنه إذا أبصر شيئاً لايحتمل عنده أن تكون عينه مؤقتة وأن يكون الأبصار على خلاف الواقع وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغوية ، فإن العربي مثلاً لايشك أن الماء موضوع لهذا العنصر ، ولفظ الأرض لذلك مع أنه لم يقم له على ذلك برهان وليس بينهما ملازمة عقلية ، ومع ذلك فإنه يخلق فيه علم ضروري ، وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبلية ، يكون بها تلقي العلم الوجداني على سنن الصواب دائماً ، وأن يتتابع الوجدان ويتكرر تجربة صدق وجدانه .

الناس ، إنما يكون بأن يصحح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن ما يدعو إليه حق ، وأن سيرته صالحة يبعد عنها الكذب ، وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات ، حتى لا يشكوا أن له في التدبير العالي منزلة عظيمة ، وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة ، وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله ولا يباشر معصية ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيماً وتصيره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم ، والماء الزلال عند العطشان ، فهذا كله لا يتحقق انصباع أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه ، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى من يعتقدون فيه هذه الأمور ، أصابوا أم أخطأوا والله أعلم» (١) .

٣ — ابعث الله أنبياءه بالإسلام :

اختار الله نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً وجميع أنبيائه ورسله ليلغوا أقوامهم دعوة الإسلام ، ومن يدين بغيره من اليهودية والنصرانية وغيرهما فهو من الكافرين المخلدين في نار جهنم وساءت مصيراً . قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .
وقال :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا

(١) — حجة الله البالغة « باب الحاجة إلى هداة السبيل ومقيمي الملل » ، ٨٣ — ٨٤ . مكتبة دار المعرفة

للمطبعة والنشر . بيروت .

(٢) — سورة آل عمران الآية ٦٧ .

وَكُرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ، قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١﴾ .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنْ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

« إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى خُتِموا بمحمد ﷺ الذي سَدَّ جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لقي الله بعد بعثة محمد

ﷺ يدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية . وقال في هذه الآية محبراً بالانحصار أن الدين المتقبل عنده في الإسلام » (٢) . اهـ .

ولو شهد عيسى وموسى عليهما السلام نبوة محمد ﷺ لكانا أول المستحبيين له السائرين في ركبته .

وقد أخبرنا الصادق المصدوق أن أول عمل يفعله عيسى عليه السلام بعد نزوله في آخر الزمان : كسر الصليب . قال ﷺ :

« وَاللَّهِ لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا ، فليَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ وَلَيَقْتُلَنَّ الْخَنَزِيرَ ، وَلَيَضَعَنَّ الْجُزْيَةَ ، وَلَيَتَرَكَنَّ الْقِلَاصُ ، فَلَا يَسْعَى عَلَيْهَا ، وَلَتَذْهَبَنَّ الشُّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ » (٣) .

(١) — سورة آل عمران الآيات ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ .

(٢) — تفسير ابن كثير : ٣٥٤/١ ، مطبعة الحلبي .

(٣) — أخرجه مسلم في صحيحه ، مختصر صحيح مسلم للمنذري ط ٣٠٨/٢ .

وفي رواية أخرى لمسلم في صحيحه أن المسيح عليه السلام يصلي مأموماً ، والمهدي يكون إمام الأمة .

وفي الحديث دليل على براءة المسيح عليه السلام من عقائد النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع المسيح عليه السلام ، وتأكيده على أنه مسلم مقر بنبوته محمد ﷺ ، بل مقر بقيادة المصطفى لجميع الأنبياء والمرسلين .

— الأنبياء دعاء إلى حزب الله : —

من حكم الله العجيبة أن جميع أنبياء الله يعرفون خاتم الأنبياء والرسول عليهم أفضل الصلاة والسلام ، وما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولننصرنه . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ (١) .

وتوجت هذه المعرفة ليلة الإسراء حيث كان محمد ﷺ إمامهم لما اجتمعوا ببیت المقدس (٢) .

وأما من جهة محمد ﷺ والمسلمين جميعاً فهم يتلون كتاب الله آناء

(— سورة آل عمران الآية ٨١ .

(— صلاة الرسول بالنبين إماماً جاءت في حديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة ، وفي حديث آخر رواه

أحمد عن ابن عباس . انظر زاد المعاد ٣/٣٤ . تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط .

الليل وأطراف النهار ، وفيه أدق الأخبار عن أنبياء الله ورسله .

ويشعر المسلم بمشاعر وأحاسيس غريبة وهو يرتل القرآن ، فهو قريب من أنبياء الله فيما يدعون أقوامهم إليه ، يعيش معهم في مشكلاتهم ، معجب بهم غاية الإعجاب ، فإذا مر على الآية التي تشير إلى إلقاء يوسف عليه السلام في الحب شعر أن هذا الفتى أخ من أعز إخوانه ، وإذا مر على الآيات التي تحدثت عن هجرة الرسول ﷺ تمنى أن يكون أحد حراسه ليفديه بروحه وأولاده .

كما يشعر المسلم بعداوة نحو اساطين الكفر الذين مر ذكرهم في القرآن : كاثمرود ، وفرعون ، وقارون ، وزوجة لوط ، وابن نوح ، وأبي لهب ، وعبد الله ابن أبي

لم يعد للزمن قيمة لأننا نعيش في كل يوم مرات ومرات مع إبراهيم ، وعيسى ، وموسى ، ومحمد ، ونوح ، وشعيب و .. عليهم السلام وكلنا أعضاء في حزب الرحمن :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ (١) .

أما أعداء الله الذين يفسدون في الأرض ، ويعلمون العداوة على أولياء الله ، فمهما اختلفت أسماؤهم وتباينت عصورهم فهم أعضاء في حزب الشيطان :

(١) — سورة المجادلة الآية ٢٢ .

﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾^(١) .

ولا لقاء أو تحالف أو مصالحة بين الحزبين .

وفي القرآن آيات كثيرة تشير إلى الأواصر التي تجمع بين أنبياء الله ، وقد اختلطت أصرة القرى والنسب بأصرة الدين والعقيدة .
قال تعالى :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين .
ذريةً بعضها من بعض والله سميعٌ عليمٌ ﴾^(٢) .

وقال :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيمَ وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾^(٣) .

وقال جلّ من قائل عن نوح :

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾^(٤) .

عقيدة واحدة ، وحزب واحد ، وأصرة واحدة ، هذه والله هي النعمة الكبرى ، والفضل العظيم الذي منّ الله به على عباده المؤمنين .

□ — لهذه الأسباب أوجب الله على المسلمين أن يتمسكوا بمنهج الأنبياء ، ويعضوا عليه بنواجذهم ، وحذّرنّا جلّ وعلا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ... كل حزب

(١) — سورة المجادلة الآية ١٩ .

(٢) — سورة آل عمران الآية ٣٣ و ٣٤ .

(٣) — سورة الحديد الآية ٢٦ .

(٤) — سورة الصافات الآية ٨٣ و ٨٤ .

بما لديهم فرحون ، وعلى غير هذا المنهج^(١) الرباني الخالد لن تتوحد كلمة المسلمين ويلتئم جمعهم .

وقد ورد اصطلاح « منهاج النبوة » في الحديث التالي :

قال ﷺ :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت »^(٢) .

□ — وهذه الأسباب شملت القصص القرآنية التي تتحدث عن أنبياء الله معظم سور القرآن الكريم ، وكانت آيات هذا الموضوع أكثر عدداً من أي موضوع آخر ... وفي ذلك دليل على أهمية هذا المنهج ، وشدة حاجة الدعاة إليه .

(١) — أخذ بعض الدعاة في الآونة الأخيرة يختارون أقوالاً وفتاوى لعلماء متأخرين ، ويتخذون منها مناهج للمعاملين في الحقل الإسلامي . وهذا منهم جهد ضائع ، ولو كان معظم مايقع عليه اختيارهم صحيحاً ، لأن الصحيح من هذه الأقوال موجود في الكتاب وال سنة ، ومن يدقق النظر في هذه المناهج يجدها شبه خالية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

ونحن لانستطيع أن نلزم المسلمين بأقوال علماء معاصرين أو حتى من التابعين ، بل ولانستطيع أن نجزم بصحة هذه الأقوال . فلينبه هؤلاء الدعاة إلى أخطائهم ولا يغترون بإعجاب كثير من الشباب بهم فأحاديث وروايات القصص كانت أكثر من كتبهم ومناهجهم رواجاً .

(٢) — رواه أحمد : ٢٧٣/٤ وقال الهيثمي : رواه أحمد والبيهقي ، والطبري يعضه في الأوسط ورجاله ثقات . سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني . الحديث رقم ٥ .

قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ، وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(١) .

وقال تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْبِثُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) .

أجل لقد كان في هذه القصص تفصيل لكل شيء : تفصيل لجميع جوانب العقيدة ، والدعوة ، والمنهج ... وفي كل ما يواجهنا من مشكلات نجد حلولاً لها من القرآن ... فعندما حزن رسول الله ﷺ من تكذيب المشركين له ، وإعراضهم عنه — مع أنه كان الأمين فيهم — ... في هذه اللحظات أنزل الله إليه قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٣)

وقوله تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٤) .

(١) — سورة يوسف ، الآية : ١١١ .

(٢) — سورة هود ، الآية : ١٢٠ .

(٣) — سورة الأنعام الآية ٣٤ .

(٤) — سورة الأحقاف الآية ٣٥ .

□ — ولهذا بشر الله جل وعلا رواد هذا الطريق بالنصر والتمكين :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾^(١) .

وقال تعالى :

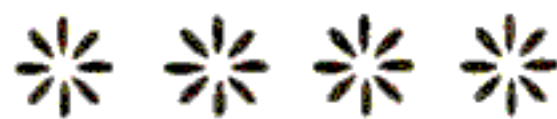
﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾^(٢) .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾^(٣) .

ألا ما أحوجنا إلى توثيق الصلة بكتاب الله الكريم نقرأ فيه بقلوبنا وأعينا قصص أنبيائه ، الذين وصفهم بقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾^(٤) .



(١) — سورة المجادلة الآية ٢١ .

(٢) — سورة الصافات الآيات ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٣ .

(٣) — سورة المؤمن الآية ٥١ .

(٤) — سورة الأنبياء الآية ٧٣ .

استدراك

وقبل أن أفرغ من كتابة هذا الفصل لابد لي من تفسير قوله تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ (١) ۝ ﴾

والشاهد هنا قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ .

قال ابن عباس : « شريعة ومنهاجاً » أي سنة وسبيلاً ونحوه قال الضحاك ومجاهد والحسن وقتادة .

ومعنى الكلام : لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمّه ، وسبيلاً واضحاً يعمل به (٢) .

ومما قاله ابو جعفر في هذه المسألة :

« ... ذكر الله ما كتب على بني إسرائيل في التوراة ، وتقدم إليهم بالعمل بما فيها ، ثم ذكر أنه قفى بعيسى بن مريم على آثار الأنبياء قبله ، وأنزل عليه الإنجيل ، وأمر من بعثه إليه بالعمل بما فيه . ثم ذكر نبينا محمداً ﷺ ، وأخبره أنه أنزل إليه الكتاب

(١) — سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

(٢) — تفسير الطبري : ١٠/٣٨٨ . دار المعارف .

مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، وأمره بالعمل بما فيه ، والحكم بما أنزل إليه فيه دون ما في سائر الكتب وغيره وأعلمه أنه قد جعل له ولأمته شريعة غير شرائع الأنبياء والأمم قبله الذين قصَّ عليه قصصهم ، وإن كان دينه ودينهم — في توحيد الله ، والإقرار بما جاءهم به من عنده ، والانتهاى إلى أمره ونهيه — واحداً ، فهم مختلفو الأحوال فيما شرع لكل واحد منهم ولأمته ، فيما أحلَّ لهم وحرَّم عليهم » (١) اهـ .

وظاهر من قول ابن عباس أن الشريعة أخص من الدين إن لم تكن مباينة له ، وأنها الأحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل وينسخ لاحقها سابقها ، وأن الدين هو الأصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأنبياء . وهذا يوافق أو يقارب عرف الأمم حتى اليوم ، فهم لا يطلقون اسم الشريعة إلا على الأحكام العملية ، بل يخضعونها بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم فيه إلى الحكام ، دون مايدان الله به من أحكام الحلال والحرام (٢) .

أما عندما يكون الحديث عن الدين ، فجميع رسل الله يدينون بدين واحد انفرد المولى جلَّ وعلا بتنزيله وإقراره ، والدليل على ذلك قوله تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (٣) .

وقوله :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٤) .

(١) — تفسير الطبري : ٣٨٦ / ١٠ دار المعارف .

(٢) — تفسير المنار : ٤١٣ / ٦ . دار المعرفة . بيروت .

(٣) — سورة الشورى ، الآية : ١٣ .

(٤) — سورة الشورى ، الآية : ٢٦ .

وقال رشيد رضا:

« والمشهور في عرف فقهاءنا وعامتنا أن الدين والشرع أو الشريعة بمعنى واحد . ولكن مع ذلك ترى استعمال : علم الشرع ، وعلماء الشريعة ، وكتب الشريعة ، ألصق بالفقه وكتبه وعلمائه منها بعلم العقائد والأخلاق وعلمائها وكتبها . وتجد الفقهاء يقولون : يجوز هذا ديانة لا قضاء . ونحو ذلك . وتحرير القول : إن الشريعة إسم للأحكام العملية وأنها أخص من كلمة [الدين] وإنما تدخل في مسمى الدين من حيث أن العامل بها يدين الله تعالى بعمله ويخضع له ويتوجه إليه مبتغياً مرضاته وثوابه بإذنه » (١) .

وقد حسم الخلاف في هذه المسألة العلامة ولي الله الدهلوي إذ قال :

« إعلم أن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام ، وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج ، تفصيل ذلك أنه أجمع الأنبياء عليهم السلام على توحيد الله تعالى عبادة واستعانة وتنزيهه عما لا يليق بجناحه وتحريم الإلحاد في أسمائه وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيماً لا يشوبه تفريط وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله ، وأنه قدّر جميع الحوادث قبل أن يخلقها وأن لله ملائكة لا يعصونه فيما أمر ويفعلون ما يؤمرون ، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده ، ويفرض طاعته على الناس ، وأن القيامة حق والبعث بعد الموت حق ، واللجنة حق والنار حق وكذلك أجمعوا على أنواع البر من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والتقرب إلى الله بنوافل الطاعات من الدعاء والذكر وتلاوة الكتاب المنزل من الله ، وكذلك أجمعوا على النكاح وتحريم السفاح وإقامة العدل بين الناس وتحريم المظالم وإقامة الحدود على أهل المعاصي والجهاد مع أعداء الله ، والاجتهاد في إشاعة أمر الله ودينه فهذا أصل الدين . ولذلك لم يبحث القرآن العظيم عن طية هذه الأشياء إلا ما شاء الله فإنها

(١) — تفسير المنار : ٦/٤١٤ .

كانت مسلمة فيمن نزل القرآن على ألسنتهم ، وإنما الاختلاف في صور هذه الأمور وأشباحها ، فكان في شريعة موسى عليه السلام الاستقبال في الصلاة إلى بيت المقدس ، وفي شريعة نبينا ﷺ إلى الكعبة ، وكان في شريعة موسى عليه السلام الرجم فقط ، وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره ، وكان في شريعة موسى عليه السلام القصاص فقط ، وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعاً وعلى ذلك اختلافهم في أوقات الطاعات وآدابها وأركانها ، وبالجملة فالأوضاع الخاصة التي مهدت وبنيت بها أنواع البر والارتفاقات هي الشرعة والمنهاج ، واعلم أن الطاعات التي أمر الله تعالى بها في جميع الأديان إنما هي أعمال تنبعث من الهيئات النفسانية التي هي في المعاد للنفوس أو عليها وتمد فيها وتشرحها وهي أشباحها وتمثيلها ولا جرم أن ميزانها وملاك أمرها تلك الهيئات فمن لم يعرفها لم يكن من الأعمال على بصيرة وربما اكتفى بما لا يكفي وربما صلى بلا قراءة ولا دعاء فلا يفيد فلا بد من سياسة عارف حق المعرفة يضبط الخفي المشتبه بأمارات واضحة ويجعلها أمراً محسوساً يميزه الأداني والأقاصي ولا يشتبه عليهم ليطالبوا به ويؤخذوا عليه على حجة من الله واستطاعة منهم» (١) . اهـ .

وإزالة لكل التباس لا بد لي من تسجيل الملاحظتين التاليتين :

١ — قسم علماؤنا — في القديم والحديث — الإسلام إلى أقسام من أهمها :
الشريعة ، الدين ، الحديث ، التفسير ، العقائد ، الفقه ، المصطلح .

وربما توهم بعضهم أن الشريعة مستقلة عن الدين ، أو أنه من الممكن تطبيق بعض الإسلام دون بعضه الآخر .

والذي يجب التأكيد عليه بأن هذه الأوهام ليست صحيحة على الإطلاق ، ففروع الدين لا تنفصل عن أصوله ، والفقه لا ينفصل عن القرآن

(١) — حجة الله البالغة للدهلوي : ٨٦/١ — ٨٧ ، دار المعرفة . بيروت .

والحديث ، كما أنه لاقيمة للعبادة والنسك إذا كانت النية فاسدة أو إذا كانت بغير ما شرع الله من البدع والخرافات . والغرض من هذه التقسيمات عند علمائنا فني محض لسهولة الدراسة والبحث .

ومن يفهم كلام العلماء الذين استشهدنا بأقوالهم في [الاستدراك] فهماً مغايراً لما أرادوا فإنما يصرخ في واد وينفخ في رماد .

٢ — في اختيار عنوان الكتاب : [منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله] قصدت الأصول والأهداف الواحدة التي كانت تجمع بين أنبياء الله جميعاً ، وهذا الذي يعنيه كثير من الكتاب في عصرنا ، وكما يقولون : لامشاحة في الاصطلاحات لاسيما إذا كانت لاتعارض مع تفسير قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ . أي أن أصل الدين واحد والشرائع مختلفة .



نشوء

عليه السلام

بعثة نوح عليه السلام

لقد تلازم توحيد الله وعدم الاشراف به وهبوط آدم عليه السلام على هذه الأرض ، فما كان على وجه الأرض أحد يشرك بالله ، واستمر التوحيد بعد آدم عليه السلام عشرة قرون كما جاء في صحيح البخاري :
« كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام »^(١).

فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة لكن لا ينبغي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام لكن حديث أبي أمامة^(٢) يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام ، وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار . والله أعلم^(٣). وبعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، وكان سبب ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنْ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنْ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾

(١) — صحيح البخاري — البداية والنهاية ١/١٠١ .

(٢) — حديث أبي أمامة رواه الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه أن رجلاً قال يا رسول الله أنبي كان آدم

قال نعم مكلم . قال فكيف كان بينه وبين نوح قال عشرة قرون . وهذا على شرط مسلم ولم يخرج .

(٣) — البداية والنهاية ١/١٠١ .

قال :

« صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعد . أما وَدَ كانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سِوَاعٌ كانت لهذيل ، وأما يَغُوثُ فكانت لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ ، بالجُرُفِ عِنْدَ سَبَأٍ ، وأما يَعُوقُ فكانت لِهَمْدَانَ ، وأما نَسْرٌ فكانت لِحِمَيْرٍ ، لآلِ ذِي الْكَلَّاعِ . أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ أَنْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ التي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَاباً وَسَمُّوَهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ »^(١).

وقال ابن جرير :

« كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ — أي يَغُوثُ وَيَعُوقُ ... — بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُم الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ لَوْ صُورْنَاهُمْ كَانُوا أَشْوَقَ لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا ذَكَرْنَاهُمْ فَصُورُوهُمْ فَلَمَّا مَاتُوا وَجَاءَ آخَرُونَ دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ فَقَالَ : إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَهُمْ يَسْقُونَ الْمَطَرَ فَعْبُدُوهُمْ »^(٢) اهـ .

وعندما عم البلاء ، وانتشر الفساد ، وعكف الناس على عبادة الأصنام من دون الله ، اختار الله عبده نوحاً لينذر قومه من عذاب ، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ :

« ... فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ — أي الخلائق — : يَانُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا ، أَمَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا بَلَّغْنَا ؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ... »^(٣).

(١) — فتح الباري : ١٠ / ٢٩٣ ، مطبعة الباني الحلبي .

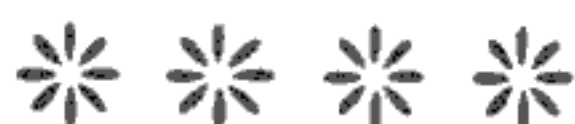
(٢) — البداية والنهاية : ١ / ١٠٦ .

(٣) — فتح الباري ، حديث الشفاعة ، وهو حديث طويل وقد اجتزأنا منه ما يخص نوحاً عليه السلام .

١٨٢/٧ مطبعة الباني الحلبي .

أما كيف صارت أصنام قوم نوح في العرب ، فيحتمل أنها سرت لهم تلك الأسماء من قبل الهند ، أو أن الشيطان ألهم العرب ذلك . وليس في هذا دليل صحيح .

وهذا يعني أن آدم وإدريس كانا نبيين لا رسولين . وقد ورد ذكر نوح عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم ، وذكرت قصته مفصلة في سورة الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ، والشعراء ، والقمر ، ونوح^(١) .



(١) — قصص الأنبياء ص ٣١ . دار إحياء التراث العربي .

كيف بدأ الشرك ؟!

في حديث ابن عباس الذي أخرجه البخاري في صحيحه دروس وعبر كثيرة .
من أهمها مايلي :

١ — زين الشيطان لقوم نوح وجوب تعظيم الرجال الصالحين بعد موتهم ، وأوحى إليهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها [أنصاباً] جمع نصب .
والمراد به هنا : الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم ، وسموها بأسمائهم .

وجاء آخرون من قوم نوح فأوحى إليهم الشيطان أن من كان قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فعبدوها .

لقد استخف الشيطان قوم نوح فأطاعوه ، وأصبحوا جنوداً في جيشه ، وأعضاء عاملين في حربه ، وكان من الواجب عليهم أن يحذروا منه لأنه عدو مبين لهم .

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ^(١) ﴾ .

كان من الواجب عليهم أن يعلموا أن عبادة الله تعني عصيان الشيطان ومخالفته في كل مايوسوس به وقد أخذ الله عهداً بذلك على عباده الموحدين .
قال تعالى :

(١) — سورة البقرة الآية ١٦٨ و ١٦٩ .

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .
وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ
تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ^(١) ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ إِنْ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ
أَصْحَابِ السَّعِيرِ ^(٢) ﴾ .

٢ — جاء في الحديث : « ... فلم تُعْبَد — أي الأصنام — حتى إذا هلك أولئك
وتنسخ العلم عُيِدَتْ » .

و [تنسخ] من نسخ أي زال ، وللكشميهني [نسخ العلم] أي درست
آثاره بذهاب العلماء ، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك ،
فوقعوا في الشرك ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله ^(٣) .

وإذن لم يستطع الشيطان أن يحقق هدفاً واحداً من أهدافه خلال ألف
عام لأن حيله لا تنطلي على العلماء ، وبضاعته لا تجد رواجاً بينهم لأنهم
يعرضون كل جديد على شرع الله ، والعبادة عندهم لا تكون إلا بما شرع
الله .

وعندما عم الجهل ومات العلماء أصبحت أوامر الشيطان نافذة وأقواله
مسموعة .. ومن أجل هذا كانت أول آية تنزل على خاتم الأنبياء
والمرسلين ﷺ :

(١) — سورة يسن الآيات ٦٠ و ٦١ و ٦٢ .

(٢) — سورة قاطر الآية ٦ .

(٣) — فتح المجيد ، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص ٢٢١ .

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ^(١) ﴾ .

وأخذ ﷺ يعلم أصحابه ويربهم في مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم ،
وتخرج من هذه المدرسة العظيمة رجال علماء لا يجزؤ الشيطان أن يقترب
منهم .

وما فتىء الزمان يدور حتى قل العلم والعلماء ، وكثرت المدارس
والجامعات ، وسخر الشيطان نفراً من جنده قاموا بوضع مناهج ليس فيها من
العلم الشرعي إلا اسمه .

وفي ظل هذه المناهج الموبوءة كثر دعاة الغلو ، وأصبحت بلاد المسلمين
مرتعاً للمنحرفين ، وموتلاً لأصحاب البدع والأهواء ، وحقل تجارب لجميع
الأفكار والمبانيء الدخيلة المستوردة .

لقد عادت عبادة الأصنام من جديد ، لكنها أصنام عصرية حديثة
قدمها الكهنة الجدد بأساليب وأشكال جديدة ، ومن أهم هذه الأصنام :
القومية ، والوطنية ، والاشتراكية ، والديمقراطية ، والعلمانية ، والوجودية ، وفي
كل يوم نسمع أسماء أصنام جديدة ما أنزل الله بها من سلطان .

٣ — لم يطلب الشيطان من قوم نوح عبادة غير الله دفعة واحدة ، ولو فعل ذلك لما
استجاب له أحد ، لكنه تدرج معهم ، فهو من جهة زعم حبه للرجال
الصالحين ، وأوحى لقوم نوح بوجوب صنع تماثيل لهم تخليداً لذكراهم ...
وبعد انقراض من تبقى من العلماء أوحى لمن جاء بعدهم من الجاهلين أن من
سبقهم كانوا يعبدون هذه الأصنام ، فاستجابوا له . ويحدثنا ابن القيم رحمه الله
عن وسائل الشيطان كلاماً طيباً ننقله فيما يلي لأهميته :

(١) — سورة العلق ، الآية : ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ .

« وما زال الشيطان يوحى إلى عبّاد القبور ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين ، وأن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها ، والإقسام على الله بها ، فإن شأن الله أعظم من أن يُقسَمَ عليه ، أو يسأل بأحد من خلقه .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله . واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويُستَلَم ويُقَبَّل ، ويحج إليه ويذبح عنده ، فإذا تقرر ذلك نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذ عيدا ومنسكاً ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم . وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ : من تجديد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهي عن ذلك فقد تنقص أهل هذه الرتب العالية ، وحطهم عن منزلتهم ، وزعم أنه لاحرمة لهم ولا قدر ، فيغضب المشركون وتشمئز قلوبهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾^(١) .

وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم ، ووالوا أهل الشرك وعظموهم ، وزعموا أنهم أولياء الله ، وأنصار دينه ورسوله ، ويأبى الله ذلك :

﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾^(٢) «^(٣) . اهـ .

(١) — سورة الزمر ، الآية : ٤٥ .

(٢) — سورة الأنفال ، الآية : ٣٤ .

(٣) — فتح المجيد ص ٢٢٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

ومن أبعاد النظر في تاريخنا الحديث علم أن جند الشيطان طبقوا الخطة نفسها التي رسمها قائدهم الأول مع قوم نوح ، ودليلنا على ذلك أن ماتعانيه أمتنا من انحرافات وبعد عن الإسلام في جميع شؤونها لم يحدث دفعة واحدة ، وإنما تم على مراحل ، وإذا أخذنا قضية المرأة كمثال على ذلك نلاحظ أن أعداء الإسلام رفعوا شعار تعليم^(١) المرأة أولاً ، وعندما تقرر ذلك وضعوا المناهج التي يريدون وجاءوا بمدربين ومدرسات تربوا على أعينهم ، وعندما تقرر ذلك زينوا للنساء المسلمات أن يتخذن من المرأة الغربية — على ما هي عليه من انحراف — قدوة هن ... وعندما تقرر لهم ذلك أخذوا ينادون بخلع الحجاب لأنه قيد ، ولا أصل له في دين الإسلام كما زعموا ، وعندما تقرر لهم ذلك راحوا ينادون بالاختلاط ومساواة المرأة بالرجل في السياسة والإرث وإدارة أعمال الدولة .. وعندما تقرر لهم ذلك وضعوا القوانين التي لا ترتب على المرأة عقوبة إن زنت .

٤ — وللشيطان اليوم سلطان واسع في بلاد المسلمين . لقد زين لأتباعه بناء القباب الفخمة على قبور الأولياء ، وإشادة المقامات والأضرحة التي يتمنى كثير من الأحياء أن تكون سكناً لهم ، ونشط أهل الغلو في الدعوة إلى تعظيم هذه المقامات والتوسل بها .

وأخذ الناس يحجون إلى هذه المزارات ، ويطوفون حولها ، وعندها ينحرون وبها يدعون ويستشفعون ، ويطلبون من أصحاب القبور أموراً لا تطلب إلا من الله وحده .. وقد قام الشاعر حافظ إبراهيم بزيارة لبعض هذه الأضرحة ، واستغرب لكثرة ما ينفق عندها من مال فقال هذه الأبيات :

| | | | |
|-----------------------------|-----------|------------------------|---------|
| أحيائنا لا يرزقون | بدرهم | وبألف ألف يرزق | الأموات |
| ويقال هذا القطب باب المصطفى | | ووسيلة تقضى به الحاجات | |
| وأنا أعذب في الحياة وليس لي | يا أم دفر | مابه | أقتات |

(١) — إن تعليم المرأة لاختلاف فيه عند علماء المسلمين ، وما كانت عليه المرأة من جهل وتغلف قبل

نصف قرن ماضٍ إلا سمة من سمات ذلك العصر .

ومن أهم هذه المقامات : البدوي والحسين وزينب في مصر ، وابن عربي وزينب في بلاد الشام ، والجيلاني وعلي والحسين في العراق ، والعيدروس في اليمن ، وهي مقامات وأضرحة وهمية ، ليس هناك أدنى دليل على أن علياً والحسين وزينب قد دفنوا في هذه القبور ، مع أن كثيراً من الصحابة قد دفنوا فعلاً في هذه البلاد ولا نجد لهم ذكراً عند أصحاب هذه البدع والضلالات^(١) .

وفوق ذلك كله ، فلقد تبوأ عباد القبور أرفع الوظائف الدينية عند الطغاة الظالمين ، وأصبحوا بطانة سوء لهم يصدر عن الفتاوى في وجوب قتل ومطاردة الدعاة إلى الله جلّ وعلا ، ويزينون لسادتهم كل عمل يعملونه ولو كان فيه مافيه من إلحاد وفساد .

ومن المؤسف أنه مازال لعباد القبور أتباع وأعوان يحسنون الظن بهم ، ويرون أنهم دعاة إلى الله ، ولهم اجتهاداتهم التي يجب أن تحترم وإن اختلفنا معهم في وجهات النظر .. وفي مثل هذه الأجواء المحمومة تزدهر تجارة المنافقين الذين ينشدون المنافع والمصالح عند علماء السوء ، ومن أتعس الناس في هذه الدنيا الذين ينافقون للمنافقين ولا يستطيعون اختصار الطريق على أنفسهم .

٥ - حرم الإسلام الصور لأنها سبب في عبادة الأصنام والأوثان ، وقد رأينا فيما مضى أن قوم نوح عبدوا صور الرجال الصالحين فيهم بعد موتهم واتخذوها أصناماً ، وأخبرنا الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة والتسليم أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون :

— عن أبي هريرة رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى :

(١) — تعظيم القبور من البدع والضلالات سواء كان المدفون في القبر صحابياً أو غير صحابي .

« ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى ، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة »^(١) .

— وعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل علي رسول الله ﷺ وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه ، وتلون وجهه ، وقال :
« يا عائشة أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله تعالى » ، قالت عائشة : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين^(٢) .

— وعن سعيد بن ابى الحسن قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال :
إني رجل أصور هذه الصور فافتنى فيها ، فقال له : ادن مني ،
فدنا منه ، ثم قال : ادن مني ، فدنا حتى وضع يده على رأسه ،
وقال : أنبتك بما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« كل مصور في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم » ، وقال : إن كنت لابد فاعلاً فاصنع الشجر وما لائنفس له^(٣) .

— وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُفِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ »^(٤) .

ومن هذه الأحاديث نعلم حرمة الصور بكافة أشكالها وأنواعها لافرق في ذلك بين ماله ظل وما لا ظل له ، كما نعلم حرمة التصوير سواء كان باليد أم بالآلة ، وقد بعث رسول الله ﷺ علماً وأمره أن يطمس كل صورة يراها :
— عن أبي الهيثاج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب : ألا أبعثك على

(١) — أخرجاه ، واللفظ لمسلم ، مختصر صحيح مسلم للمنزدي . الحديث رقم [١٣٧٠] .

(٢) — أخرجاه ، واللفظ لمسلم ، المصدر السابق ، الحديث رقم [١٣٦٦] ، والسهوة : بيت صغير منحدر في الأرض شبيه بالخزانة ، والقرام ثوب من صوف ، ويضاهون : يشبهون . حاشية المختصر .

(٣) — أخرجاه ، واللفظ لمسلم ، مختصر صحيح مسلم الحديث رقم [١٣٦٩] ، ١٢٤/٢ .

(٤) — أخرجاه ، واللفظ للبخاري ، فتح الباري : ٥١٨/٢ .

مابعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته^(١) .

وقال الإمام النووي رحمه الله بعد ذكر تحريم الصور : « ولا فرق في هذا كله بين ماله ظل وما لا ظل له ، وهذا تلخيص مذهبنا في المسألة ، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وهو مذهب الثوري ومالك وأبي حنيفة وغيرهم ، وقال بعض السلف إنما ينهى عما كان له ظل ولا بأس بالصورة التي ليس لها ظل وهو مذهب باطل فإن الستر الذي أنكر النبي ﷺ الصورة فيه لا يشك أحد أنه مذموم وليس لصورته ظل مع ما في الأحاديث المطلقة في كل صورة »^(٢) اهـ .

وقال الزهري : « النهي في الصورة على العموم وكذلك استعمال ما هي فيه ، ودخول البيت الذي هي فيه سواء كان رقماً في ثوب أو غير رقم سواء كانت في حائط أو ثوب أو بساط ممتن أو غير ممتن عملاً بظاهر الأحاديث لاسيما حديث التمرقة الذي ذكره مسلم وهذا مذهب قوي »^(٣) . اهـ .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني بعد ذكره ملخص كلام النووي
الآنف الذكر :

« ويؤيد التعميم فيما له ظل وما لا ظل له ما أخرجه أحمد من حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : [أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثناً إلا كسره ولا صورة إلا لطخها] أي طمسها ، الحديث . وفيه [من عاد إلى صنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد^(٤)] .

(١) — أخرجه مسلم ، مختصر صحيح مسلم ، الحديث ٤٨٨ ، ١/١٣١ .

(٢) — صحيح مسلم بشرح النووي : ٨١/١٤ .

(٣) — صحيح مسلم بشرح النووي : ٨٢/١٤ .

(٤) — فتح الباري : ٥٠٧/١٢ . مطبعة الباني الحنبي .

وقال الحافظ ابن حجر أثناء كلامه على حديث عائشة: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة» قال: ويستفاد منه أنه لا فرق في تحريم الصور أن تكون الصورة لها ظل أو لا. ولا بين أن تكون مدهونة أو منقوشة أو منقورة أو منسوجة» (١). اهـ.

وذهب بعض العلماء في هذا العصر إلى جواز التصوير «الفوتوغرافي» وليس فيما ذهبوا إليه دليل، بل الأدلة تؤكد حرمتها لأن رسول الله ﷺ قال: «إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة»، فأطلق الصور ولم يخصصها بنوع معين.

ولقد أعجبني مقاله الشيخ مصطفى الحمامي في رده على الذين يقولون بإباحة الصور الفوتوغرافية بحجة أن التصوير المنهي عنه ما كان باليد:

«وهذا عندي أشبه بمن يرسل أسداً مفترساً فيقتل من يقتل أو يفتح تياراً كهربائياً يعدم كل من مر به أو يضع سمّاً في طعام فيهلك كل من تناول من ذلك الطعام فإذا وجه إليه اتهام بالقتل قال أنا لم أقتل إنما قتل السم والكهرباء والأسد ويردّف قوله هذا بحجة: هي أن القتل لا يكون قتلاً إلا إذا كان باليد وأنا مامددت يدي إلى أولئك الموتى فكيف ينسب إلي قتلهم، والذي يقال هذا إن القتل أن ترهق الروح بأي وسيلة من وسائل القتل ومن الوسائل القاتلة السم والكهرباء والسبع فعلى من سلطها إثم القتل وإن لم يمد يده. فكذاك التصوير المراد منه إيجاد الصورة والبلاء كله في الصورة... إلى أن قال:

ولو شئت لقلت إن عذاب المصور بتلك الآلة سيكون أضعاف أضعاف ما يصوره المصور بيده. بل الذي تصوره آلة التصوير في لحظة يمكث المصور بيده سنين في تصويره والعذاب على قدر الانتاج في التصوير وذلك أنك تفهم

أن تصوير صورة واحدة معصية كبرى واحدة فإذا انضم إليها تصوير صورة ثانية كانت معصية ثانية وهكذا كلما كثرت الصور المصورة كلما كثرت آثام المصور وأنت تعلم أن العذاب يكون على قدر الآثام فكلما كثرت كلما اشتد العذاب وطال» (١). اهـ.

ويستثنى من كل ماسبق تفصيله جواز تصوير مافيه فائدة محققة ، أو كانت هناك ضرورة تدعو لذلك .

قال الشيخ ناصر الدين الألباني :

« وقبل أن أنهي هذه الكلمة لايفوتني أن ألفت النظر إلى أننا وإن كنا نذهب إلى تحريم التصوير بنوعيه جازمين بذلك ، فإننا لانرى مانعاً من تصوير مافيه فائدة متحققة بدون أن يقترن بها ضرر ما ، ولا تيسر هذه الفائدة ، بطريق أصله مباح ، مثل التصوير الذي يحتاج إليه في الطب وفي الجغرافيا وفي الاستعانة على اصطلياد المجرمين والتحذير منهم ونحو ذلك فإنه جائز ، بل قد يكون بعضه واجباً في بعض الأحيان والدليل على ذلك حديثان :

الأول : عن عائشة أنها كانت تلعب بالبنات فكان النبي ﷺ يأتي لي بصواحيبي يلعبن معي .

أخرجه البخاري (٤٣٣/١٠) ومسلم (١٣٥/٧) وأحمد (١٦٦/٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤) واللفظ له وابن سعد (٦٦/٨) .

وفي رواية عنها أنه كان لها بنات تعني اللعب وكان إذا دخل النبي ﷺ استتر بثوبه منها قال ابو عوانة لكي لا تمتنع أخرجه ابن سعد (٦٥/٧) وسنده صحيح .

(١) — الإعلام بنقد كتاب الحلال والحرام ، للشيخ صالح بن فوزان ص ٤٠ . هذا ومن أشهر العلماء

المعاصرين الذين قالوا بحرمة الصور والتصوير على مختلف أشكاله باليد كان أم بالآلة : الشيخ محمد بن إبراهيم ، عبد العزيز بن باز ، محمد أمين الشنقيطي ، ناصر الدين الألباني ، أحمد شاكر .

واستدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللعب من أجل لعب البنات بهن ، وخص ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور وبه جزم عياض ، ونقله عن الجمهور ، وأنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريهن من صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن .

الثاني : عن الربيع بنت معوذ قالت : أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأمصار [التي حول المدينة] ، من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائماً فليصم ، قالت : فكنا نصوم بعد ، ونصوم صبياننا [الصغار منهم إن شاء الله ونذهب إلى المسجد] ونجعل لهم اللعبة من العهن ، [فنذهب به معنا] ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار .

[وفي رواية : فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم] رواه البخاري (١٦٣/٤) والسياق له ومسلم (١٥٢/٣) والزيادات مع الرواية الأخرى له .

فقد دل هذان الحديثان على جواز التصوير واقتنائه إذا ترتبت من وراء ذلك مصلحة تربية تعين على تهذيب النفس وتثقيفها وتعليمها ، فيلحق بذلك كل ما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين من التصوير والصور ، ويبقى ماسوى ذلك على الأصل وهو التحريم مثل صور المشايخ والعظماء والأصدقاء ونحوها مما لا فائدة فيه بل فيه التشبه بالكفار عبدة الأصنام ، والله أعلم ^(١) .

وبعد : هذا ملخص موجز ضم طائفة من الأحاديث النبوية ، وأقوال بعض العلماء المحققين في القديم والحديث ، وأردنا من وراء ذلك أن نبين حكمة الإسلام التي تتجلى في تحريم كافة الوسائل التي تقود إلى الشرك ، كما أردنا من جهة أخرى أن نلفت النظر إلى حجم الخطأ الذي يرتكبه بعض المنسوبين إلى العلم

(١) — حكم الإسلام في التصوير ، سلسلة طوبى للفرقاء . ص ٦٦ و ٦٧ .

الشرعي .. هؤلاء الذين يحرصون أشد الحرص على نشر صورهم(*) في الكتب والمجلات والصحف الإسلامية وغير الإسلامية، بل وبعضهم يختارون المهرة من المصورين الذين يحسنون اختيار اللقطات الناجحة، ويطلبون من فضيلة الشيخ أن يرتدي ملابس معينة، كما يحددون له كيفية الجلوس، والأمر لله من قبل ومن بعد.



(*) — بل وصل الأمر إلى حد تصدر الأوامر والتعليمات برفع الصور وكيفية تعليقها وترتيبها في الاحتفالات والمسيرات والقيام لها تعظيماً عند مرورها وهي تحمل، وهذا يحدث بين من يدعون العلم فضلاً عن الجهال والغوغاء ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

دعوة نوح

دعا نوح قومه إلى الاعتراف بوحداية الله وعدم الإشراك به ، وأن لا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً . قال تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ^(١) ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ^(٢) ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ^(٣) ﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ^(٤) ﴾ .

إن دعوة نوح لقومه خلال ألف سنة إلا خمسين عاماً تتلخص بقوله تعالى :

﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ، بل هذا منهج أنبياء الله جميعاً . قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ^(٥) ﴾ .

(١) — سورة الأعراف الآية : ٥٩ .

(٢) — سورة هود الآية : ٢٥ و ٢٦ .

(٣) — سورة المؤمنون الآية : ٢٣ .

(٤) — سورة نوح الآية : ١ و ٢ و ٣ .

(٥) — سورة الأنبياء الآية : ٢١ .

ولن يستقيم أمر الناس في هذه الدنيا إلا إذا أذعنوا لله ، وانقادوا له في كل شأن من شؤون حياتهم ومماتهم ، ولا معنى لهذا الانقياد والاستسلام إلا إذا عبدوا الله وكفروا بكل ما يعبد من دونه .

وكان نوح عليه السلام حريصاً على نجاة قومه من الهلاك ، لا يرجو لهم إلا الخير ، ولا ينتظر منهم مكافأة أو أجراً .. ولهذا تلمظ في خطابهم ، وسلك في دعوته لهم كل سبيل ، ومن أشهر ذلك ما يلي :

١ — فمن الأدلة على شفقتة ومحبته لهم قوله تعالى على لسان نوح :

﴿ .. إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

﴿ .. إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ .

٢ — يضع نوح عليه السلام الأمور في مواضعها الصحيحة .

قال تعالى على لسان نوح :

﴿ .. وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خِزْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ^(١) ﴾ .

يقول نوح في رده على قومه : إنني لأعلم الغيب ، ولا أعد المؤمنين بمال أو جاه فأجرهم على الله وحده يوم لا ينفع مال ولا بنون ، بل ولم أدّج أني ملك كريم إن أنا إلا بشر أكرسني الله بالرسالة وعندما يتحداه قومه أن يأتيهم بالعذاب الذي يعدهم به إن كان صادقاً ، يجيبهم بأن الله وحده هو الذي يأتيهم بالعذاب ، ونوح عبد أكرمه الله بالرسالة ، وهو لا يستطيع نفعا ولا ضرا . قال تعالى :

﴿ .. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُفْجِزِينَ ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ

(١) — سورة هود الآية : ٣١ .

نُصَحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(١) ﴿

مأحوج دعائنا إلى هذا المنهج الرباني الخالد .. بمأحوجهم إلى تربية الناشئة على الإيمان بالغيب ، وانتظار الأجر من الله وحده ، وليس من شيخ أو زعيم بعدهم بحقائب وزارية أو وظائف قيادية .. وبعد حين لانتحقق هذه الوعود فيتحول الشباب إلى أعداء لشيخوهم !! .

٣ — يُذَكِّرُ نوح قومه بأنه الرجل المعروف بينهم بالأمانة والصدق ، وأنه لا يطلب منهم أجراً أو مالاً ، ولا ينتظر مكافأة أو ثواباً إلا من الله وحده .

قال تعالى :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ^(٢) ﴾ .

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ^(٣) ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحُ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ^(٤) ﴾ .

٤ — وأحياناً كان يلفت أنظارهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق ، ويعدد لهم آلاءه على عباده علّهم يهتدون إلى وحدانية الله ، وينتهون عن عبادة ما لا يضر ولا ينفع . قال تعالى :

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ

(١) — سورة هود الآية ٣٣ و ٣٤ .

(٢) — سورة يونس الآية ٧٢ .

(٣) — سورة هود الآية ٢٩ .

(٤) — سورة الشعراء الآيات ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ .

اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ،
وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ، وَاللَّهُ
جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ^(١) . ﴿

٥ — وكان عليه السلام لا يأس ولا يقنط من رحمة الله تعالى ، ولهذا فهو يواصل
الليل مع النهار ، والسر مع الإعلان . قال تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ،
وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا
ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ، ثُمَّ إِنِّي
أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ^(٢) . ﴿

ألف سنة إلا خمسين عاماً قضاها نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله
دون كلل ولا ملل ، وكلما أعرض قومه غير وبدل في أسلوبه ، وهذا
يعني أنه كان يحاسب نفسه ، فإذا أعرض قومه عن الدعوة العلنية عاد
يلغهم الدعوة بصورة سرية ، وفي جميع الحالات كان رحيماً بهم خائفاً عليهم
عذاب يوم أليم .

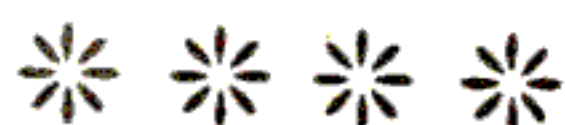
لقد كان نوح قمة في الصبر ، وآية من آيات الله في الحلم والأناة وسعة
الصدر ، وأمة في الجد والمثابرة ، وطوداً شامخاً في التواضع وإنكار الذات ...
وفوق ذلك كله ما كان يرجو منهم أجراً أو مكافأة ، ولا كان يتخذ من الدعوة
وسيلة لجمع المال وإحراز المكاسب .

فهل يتعظ بذلك الدعاة الذين ما يستولي اليأس على نفوسهم ،
ويسيطرون الظن بأقوامهم في إصدار الأحكام الظالمة عليهم ، وينهزمون
أمام أية صدمة يتعرضون لها ؟ !

(١) — سورة نوح الآيات: ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ .

(٢) — سورة نوح الآيات: ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ .

هل يتعظ بذلك الدعاة الذين يقدسون ذواتهم ، ولا يقبلون من إخوانهم
نقداً أو نصحاً ، ولا يدعون إلى الله إلا بأجر ؟! .



موقف الملأ

الملأ: هم بطانة الحكام الظالمين وأعوانهم، وأصحاب المصالح، والأغنياء المترفون، والمنافقون، وزعماء المناطق والقبائل .. ومن سنن الله الثابتة في خلقه أن يكون هؤلاء جميعاً في طليعة من يتصدى لأنبياء الله لأن نفوسهم قد امتلأت بحب المال والجاه، وقلوبهم قد أشربت كره كل من يدعو إلى دين الله .. وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم:

﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ^(١) ﴾ .

ولهذا فقد شنَّ الملأ حرباً شعواء على نوح عليه السلام، وأدبروا يسعون في الأرض فساداً، واستخدموا وسائل كثيرة ودعايات متناقضة في مواجهة أول رسول إلى الأرض.

١ — مما أخذه الملأ على نوح أن أتباعه كانوا فقراء مستضعفين، ولم يستجب لدعوته أحد من الأشراف والسادة. قال تعالى:

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَادِبَ الرَّأْيَ، وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ^(٢) ﴾ .

أرادلنا: أرديائونا وأخسائونا، ويعنون بهم من دون طبقة الأشراف والأكابر كالزراع والصناع والعمال.

بادي الرأي: أي اتبعوك في بادي الرأي أي ظاهره الذي يبدو للناظر فيه قبل

(١) — سورة سبأ الآية ٣٤ .

(٢) — سورة هود الآية ٢٧ .

العلم بما وراء قوادمه من خوافيه ، والتأمل في باطنه ، والغوص في أعماقه (١) .
وقال تعالى :

﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأُذُلُونَ ، قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ،
إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ .

وما زال لهذه الطبقية الشاذة الهمجية جذور راسخة في عصرنا الذي
يسمى بعصر التقدم والمدنية .

فبعض المنسوبين إلى أهل العلم يتناولون على الذين لأعلم عندهم ! .
والأغنياء المترفون — الرأسماليون والاقطاعيون — يحتقرون العمال الكادحين
والفقراء المدقعين ، ولو كانوا أصحاب مواهب فذة !! .
وأرباب الوظائف الكبيرة يزددون عامة الناس ، ويتخذون من أنفسهم
أرباباً من دون الله !! .

وهذه كلها مقاييس جاهلية مهما نعق دعائها بالمساواة والعدل .. والله
سبحانه وتعالى مقياس ثابت لا يتزعزع : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَامُ (٣) ﴾ .

إن المتقين أعز خلق الله ، وأرفعهم شأنًا ولو كانوا شعثاً غبراً لا يملكون
مالاً أو جاهاً .. ولهذا كان رد نوح على قومه : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فهم مؤمنون وكفاهم ذلك نسباً وشرافاً .

٢ — تناسى الملائكة مكانة نوح عليه السلام في قومه قبل الرسالة ، لقد كان صادقاً

(١) — تفسير المنار ، رشيد رضا ٦١/١٢ ، دار المعرفة بيروت .

(٢) — سورة الشعراء الآيات : ١١١ و ١١٢ و ١١٣ و ١١٤ .

(٣) — سورة الحجرات الآية ١٣ .

أُمِينًا ، لايجزؤ أحد منهم أن يطعن في عدالته واستقامته .. وبعد أن أكرمه الله بالرسالة التي تستهدف أول ماتستهدف زعامتهم الظالمة راحوا يلصقون به تهماً لاحصر لها :

فتارة يقولون إن نبيكم ضال :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ^(١) ﴾ .

وتارة أخرى يتهمونه بالكذب :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ^(٢) ﴾ .

﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ^(٣) ﴾ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ^(٤) ﴾ .

وفي غير هذه وتلك يقولون إنه مجنون !! :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ^(٥) ﴾ .

وهكذا تنقلب الموازين ، وتتذبذب القيم ، وكل إناء بما فيه ينضح !! .

٣ — إن غاية مايتطلع إليه المترفون أن يكونوا سادة أقوامهم وأهل الحل والعقد فيهم .. ومن أجل ذلك يتحاربون ويتنافسون ، ويحسبون أن المال والجاه هما

(١) — سورة الأعراف الآية ٦٠ .

(٢) — سورة الأعراف الآية ٦٤ .

(٣) — سورة هود الآية ٢٧ .

(٤) — سورة هود الآية ٣٥ .

(٥) — سورة المؤمنون الآية ٢٥ .

كل ما في هذه الدنيا ، ولهذا فهم لا يتصورون معاني إنكار الذات والانقياد التام لله .. ومن هنا جاء اتهامهم لنوح عليه السلام بحب الزعامة . قال تعالى :

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَيْهِ وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَحْنُ عَلَىٰ كَذِبٍ ^(١) ﴾ .

وقال :

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ^(٢) ﴾ .

وفي قولهم : وما نرى لكم علينا من فضل ، فالفضل عند الملأ يعني : القوة والمادة وكثرة الرجال .. وهذه الصفات متوفرة عند الملأ وليس عند نوح ومن آمن معه .

وفي قولهم : بل نظنكم كاذبين . أي ليس هناك من رسالة ولا رسول بل هي مؤامرة طبقية تستهدف الإطاحة بالسلطة والأشراف ، وتسليم شؤون الحكم إلى العبيد والمنبوذين !! .

٤ — — ومن أهم ما تمسك به المترفون في ردهم على نوح عليه السلام أنه خرج على المألوف من العادات ، وخالف نهج الآباء والأجداد . قال تعالى :

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ^(٣) ﴾ .

(١) — — سورة هود الآية ٢٧ .

(٢) — — سورة المؤمنون الآية ٢٤ .

(٣) — — سورة المؤمنون الآية ٢٤ .

والشاهد في هذه الآية قولهم : ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين !! ، وهذا يعني أن الحق هو ما يأتيهم عن طريق الآباء ، وما يأتي عن غير طريقهم فضلال وانحراف .

ومن شر ما تبلى به الأمم والشعوب جمود قاداتها ومفكرها على آراء وتصورات الآباء والأجداد ، ومن المؤسف أن ناساً من الناس قد يسخرون من جمود قوم نوح ، ومع ذلك فهم متمسكون بآراء وفتاوى شيوخهم وزعمائهم ، ولا يرون جواز الخروج على آراء هؤلاء المشايخ ، وعجيب أمر الإنسان يرى القذى في عين غيره ولا يرى الجذع في عينه !! .



نوح وأهله

قد يتلى الداعية بقومه وأصدقائه فيعاني منهم مايعاني ، لكنه إذا عاد إلى بيته وجد الراحة وطمأنينة النفس ، وهذا الذي كان يلقاه خاتم الأنبياء ﷺ في كنف خديجة رضي الله عنها .

أما نوح عليه السلام فقد ابتلاه الله بقومه وبأهل بيته . قال تعالى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ^(١) ﴾ .

وكانت خيانة امرأة نوح لزوجها أنها كانت تنقل أخباره وأسراره لأعدائه ، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابة من قوم نوح به ، فهي خيانة في الدين ، وليس في العرض لأن نساء الأنبياء معصومات من الزنى .

وقوله تعالى :

﴿ فَلَمْ يَغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ .

فيه بيان أن العلاقة الزوجية لا تنفع شيئاً مع الكفر ، وقد بين تعالى ما هو أهم من ذلك في عموم القرابات كقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ .

وقوله :

﴿ يَوْمَ يَفِرُ المِرءُ من أخيه وأمه وأبيه ﴾ ^(٢) .

(١) — سورة التحريم الآية ١٠ .

(٢) — أضواء البيان للشيخ الشنقيطي : ٣٨١/٨ .

ولم تكن مصيبة نوح بزوجه آخر مصائبه في بيته ، لقد رفض ابنه الإسلام ، وأعرض عن أبيه ووقف في صف المشركين .. وإنه لمن أثقل الأمور على النفس أن يفقد الأب ابنه ثم يراه في الصف المعادي له ، ويحاول نوح عليه السلام انقاذ ابنه من الغرق عند بداية الطوفان ، ولكن هيهات . قال تعالى :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَأُوتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ^(١) ﴾ .
وقال :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَأَنْ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٢) ﴾ .

لم يخالف نوح عليه السلام أوامر ربه ، ولكنه اجتهد في أمر ابنه ، وليس غريباً أن تتحرك عواطف الأبوة في نفس نوح وهو يرى الموت محققاً بفلذة كبده الذي يصدق عليه قول الشاعر :

وإنما أولادنا بَيْنَنَا أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبَّت الريح على بعضهم لامتعت عيني من الغمض ^(٣)

(١) — سورة هود الآية ٤٢ و ٤٣ .

(٢) — سورة هود الآيات ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ .

(٣) — أبيات للشاعر حطان بن المعلى ، ديوان الحماسة ١/١٠١ .

وقال أبو الحسن التهامي عندما وارى جثة ابنه :

فكأن قلبي قبره وكأنه في طيه سر من الأسرار

وللطوفان هول ودهشة تطير لهما الألباب ، وتحار في وصفه الأخيلة والأفكار .

وفي هذه الأجواء الرهيبة التي سبقت الطوفان بلحظات يتوجه نوح إلى ربه قائلاً : رب إن ابني هذا من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين .
والوعد الذي أشار إليه نوح قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ ﴾ .

والذين سبق عليهم القول من أهل نوح وزوجه وولده ، فهما من الذين يشملهم قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ۖ ﴾ .

ومع أن نوحاً عليه السلام لم يخالف أوامر ربه ، وكل ما في الأمر أنه سأل جلاً وعلاً نجاة ابنه بعد أن رآه في معزل عن الكافرين ، ورغم ذلك كان رد الله على عبده ورسوله نوح حاسماً واضحاً قوياً :

﴿ قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ ﴾ .

يانوح إنك مؤمن وابنك كافر فكيف يكون من أهلك ؟!

يانوح لاتسأل عن أشياء لاعلم لك بها ، وحذار حذار أن تكون من الجاهلين !! .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ ﴾ :

« وهذا النهي يدل على أنه يشترط في الدعاء أن يكون بما هو جائز في شرع الله وسننه في خلقه ، فلا يجوز سؤال ما هو محرم وما هو مخالف لسنن الله القطعية » (١) اهـ .

وقوله :

﴿ إِنِّي أعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

أي أنك أن تكون من الجاهلين الذين تحركهم الشهوات ، وينقادون للأهواء والمنافع .

وترتعد فرائص نوح من شدة الخوف ، ويرتجف من لوم الله له ، ويتوجه إلى ربه مستغفراً تائباً :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

وقصة نوح مع ابنه تذكرني باستغفار رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب بعد هلاكه ، وقوله : « وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » ، فأنزل الله :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

وروى الامام أحمد عن ابي بريدة عن أبيه قال :

« كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر فترل بنا ونحن قريب من ألف راكب فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله مالك ؟ . قال :

إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي فدمعت عيناها رحمة لها من النار » .

(١) — تفسير المنار ، لرشيد رضا ١٢/٨٥ دار المعرفة بيروت .

(٢) — أخرجه البخاري في صحيحه ، فتح الباري ١٠/١٢٤ ، مطبعة الحلبي .

وإذن : عاتب الله نبيه نوحاً لأنه سأل ربه نجاة ابنه المشرک من الغرق . ولم يأذن لخاتم الأنبياء أن يستغفر لأمه آمنة ، كما عاتبه لأنه كان يستغفر لأبي طالب الذي وقف مع ابن أخيه بكل ما يملك حتى توفي وكان يقول :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

وإننا بعد آلاف السنين لنشعر بالحنجى لأن أواصر التراب والطين مازالت عند بعضنا أقوى من آصرة العقيدة والدين ، وإن الانتماء الجغرافى لکيانات صنعها أعداء الإسلام المستعمرون أصبح مقدساً عند ناس من بنى جلدتنا .. وهم الذين يقرأون فى كتاب الله :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ^(١) ﴾ .



(١) — سورة المجادلة ، الآية : ٢٣ .

الطوفان

كان لقوم نوح قلوب لكنهم لا يفقهون بها فهي في قسوتها أيس من الصخر ، وكان لهم عيون لكنهم لا يبصرون الحق بها ، وكان من المنتظر أن تخف عداوتهم لنبيهم بعد سني حياته الطويلة في دعوتهم وتبليغهم ، لكنهم ازدادوا نفوراً منه وعداوة له ، وقد عرض لنا القرآن الكريم الصور التالية من أحوالهم قبل أن يهلكهم الله .

قال تعالى على لسان نوح :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾^(١) .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآيات :

« .. وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ، وإصرارهم هم على الضلال . تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة . تبرز في وضع الأصابع في الآذان ، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب . والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل ، وهو يقول :

﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ .

وآذانهم لاتسع أصابعهم كاملة ، إنما هم يسدون بها أطراف الأصابع . ولكنهم يسدون بها في عنف بالغ ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضماناً لعدم تسرب الصوت إليها بتاتاً ! وهي صورة غليظة للإصرار والعناد ، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار »^(٢) .

(١) — سورة نوح الآيات ٥ و ٦ و ٧ .

(٢) — في ظلال القرآن ، سيد قطب . تفسير سورة نوح .

وبلغ الحمق بقوم نوح منتهاه عندما صاروا يستعجلون عذاب الله الذي يحدثهم عنه نبيهم ، بل ويسخرون من نوح وهو يصنع الفلك قائلين له قد كنت نبياً فأصبحت نجاراً ، ومبعث هذه السخرية وذاك الاستعجال اعتقادهم أن نوحاً ليس صادقاً ، ولن يحل بهم عذاب أو هلاك . قال تعالى :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ^(١) ﴾ .

وعندما أعوزتهم الحجة التي يردون بها على منطق نوح وأدلتة الواضحة راحوا يهددونه بالرجم والقتل :

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ^(٢) ﴾ .

وما يزال طواغيت هذا العصر يلجأون إلى هذا الأسلوب عندما يشعرون بقوة الجماعة الإسلامية ، وكثرة مؤيديها ، وأنه من المتعذر جداً احتواؤها وتفريغها من مضمونها .

وما يزال أعداء الله يتظاهرون بالسماحة مع الدعاة ، ويزعمون أنهم ضد الاستبداد ، بل وقد يدعون إلى إسلام لا يهدد زعامتهم وشهواتهم ، فإذا رأوا أن الأمور تسير في غير صالحهم ، وأن الجماعة الإسلامية لا ترضى بغير حكم الله بديلاً .. انقلبوا إلى وحوش كاسرة وطغاة متجبرين .. وسارعوا إلى حفر الأخاديد ونصب المشانق ، وسوق المؤمنين الأحرار إلى السجون والمعتقلات حيث يعاملون فيها معاملة لاتليق بالبهايم والكلاب ، ولا يكتفون بذلك بل يستنفرون أجهزة إعلامهم لتسميم الأجواء ، وتشويه صورة الإسلاميين عند عامة الناس ، وتسويغ جرائمهم التي يرتكبونها .

(١) — سورة هود الآية ٣٢ .

(٢) — سورة الشعراء الآية ١١٦ .

وفي هذه الأجواء المحمومة التجأ نوح إلى ربه يشكو له جلّ وعلا ما يلاقيه من قومه ، ويسأله النصر والتمكين :

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ^(١) ﴾ .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ إِلَىٰ مَغْلُوبٍ فَأَنْتَصَرَ ^(٢) ﴾ .

أجل إنه مغلوب إن لم تلحظه عناية الله ، ويدركه نصره وتأيدده ، وهو لا يستطيع بعدد قليل من الناس أن يقابل جموعاً من الخلائق لا تحصى ولا تعد .

ونوح فوق ذلك كله ليس له من الأمر شيء ، وقد علّمه ربه بشكل حاسم أن لا يسأله بما ليس له علم به ، وما عليه إلا أن يشكو بثه وحزنه إلى الله ، وينتظر منه وحده تفريج كربته .

وحسنت قضية تبليغ الدعوة إلى قوم نوح بقوله تعالى :

﴿ وَأَوْحِيْ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ^(٣) ﴾ .

وإذن : فلن يؤمن من قوم نوح إلا ذلك العدد القليل ، ولن تنفع المواعظ بهم ، ولم يبق أمامهم إلا الهلاك ، وسيحل بهم غضب الله لا محالة ، فدعا نوح ربه أن يعمهم سخط الله ، وأن لا يذر منهم أحداً حياً على وجه الأرض . قال تعالى على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيْئَاراً ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ، رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي

(١) — سورة المؤمنون الآية ٢٦ .

(٢) — سورة القمر الآية ١٠ .

(٣) — سورة هود الآية ٣٦ .

مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا^(١) ﴿٢٨﴾

وبعد أن انتهى نوح من صنع السفينة ، وحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وبينما كانت العصابة المؤمنة يجلسون حول نبيهم ، وكانت سفينتهم تجري بسم الله وفي سبيل الله أرسل الله مطراً كأفواه القرب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها^(٢) . قال تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فَقَدَعَا رَبُّهُ إِلَيْنَا مُهْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ، وَلَقَدْ لَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ^(٣) ﴾

وخلال زمن قليل جداً تم أمر الله في هلاك جميع الكافرين ونجاة المؤمنين .. وعندئذ أمر الله الأرض أن تبلع ماءها ، وأمر السماء أن تمسك عن المطر .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٤) ﴾

« ماأفزع هذا المنظر ! ماأشد هوله ! ماأعظم روعته ! ماء ينهمر من آفاق السماء انهماراً ، وأرض تتفجر عيوناً خوارة فتفيض مدرارة ، ماء ثجاج يصير ببحراً ذا أمواج ، خفيت من تحته الأرض بجبالها ، وخفيت من فوقه السماء بشمسها وكواكبها .. فتخيل أنك ناظر إلى هذه السفينة كما صورها لك التنزيل ، تتفكر في

(١) — سورة نوح الآيات ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ .

(٢) — البداية النهاية لابن كثير ١/١١٢ .

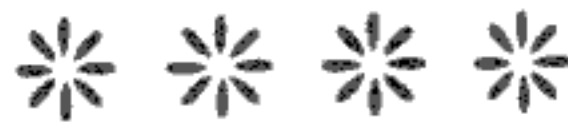
(٣) — سورة القمر الآيات ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ .

(٤) — سورة هود الآية ٤٤ .

أمر هذا الخطب الجلل ، واستمع لما بينه به الذكر الحكيم ، أوجز عبارة وأبلغها تأثيراً ، جعلت أعظم مافي العالم كأن لم يكن شيئاً مذكوراً^(١) » .

وهكذا قضى الله أمره بهلاك الظالمين لأنهم حادّوا الله ورسوله ، واستمرأوا الظلم ، وأبوا التوبة والعودة إلى الله ، فحال الموج بينهم وبين آبائهم وأشقائهم وتهاوت أصرة النسب الفانية ، أمام أصرة العقيدة الخالدة .

هكذا انتهت محنة ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وانهارت عروش الطغاة الجبابرة ، وانهدت أركان وقواعد الكفر والفساد .. وكل ذلك تم بلحظات قصيرة فهل من مذكر ؟! .



(١) — تفسير المنار ، رشيد رضا ١٢/٨٠ .

عبر وعظات من سيرة نوح

- ١ — إن نوحاً عليه السلام الذي من الله جل شأنه عليه بالنصر والتمكين :
- كان عالماً بشؤون الدعوة وحال المدعوين ، فهو يدعو إلى الله على بصيرة من أمره .
- وكان حليماً ، واسع الصدر ، محباً لقومه ، لا يعرف الحقد سبيلاً إلى نفسه ، ولا يأبه من استخفاف الناس به ، ولا يقيم للأهواء والأمزجة وزناً .. لقد كان مؤمناً بالله منقاداً لأمره .
- وكان يعيش لدعوته ، فمن أجلها يواصل الليل مع النهار والسر مع الإعلان ، ولا يتقاضى على ذلك أجراً أو ينتظر مغنماً أو يطمع في جاه .
- وكان المؤمنون بدعوته هم أهله وعشيرته وحزبه وقومه ولو كانوا لا يرتبطون معه بنسب ، ولا تجمعهم به مصالح من مصالح الدنيا .
- أما الكافرون بدعوته فهم غرباء عنه ولو كانوا أهله وأقرب الناس إليه نسباً .. وكانت عداوته للمشركين تتناسب مع طول صبره عليهم وشدة اضطهادهم له ، ولهذا دعا ربه أن لا يذر على الأرض منهم دياراً .
- فعلى الدعاة إلى الله أن يتأسوا بنوح عليه السلام في علمه وصبره وتجرده وليعلموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .
- ٢ — كان نوح عليه السلام — مع نشاطه في الدعوة الذي تضرب به الأمثال — شديد الصلة بالله ، كثير الالتجاء إليه ، وليراجع من شاء الآيات في قصة نوح التي تكون بدايتها : ﴿ قَالَ نوح رب ... ﴾ ، وقد سماه الله عبداً شكوراً .

فَمِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ كَانَ نوح عليه السلام ينشد النصر ، وما كان — وهو يواصل الليل مع النهار — يعلق آمالاً على أحلاف يعقدها مع مشركين ضد مشركين ، ولا كان مغروراً بقوته أو قوة أتباعه المادية .

ومن الأدلة على قوة إيمانه بالغيب رده القاطع على سخرية قومه — وهو في أشد حالات الضعف — بأنه سيسخر منهم غداً يوم ينصره الله .

وكان الله قريباً من عبده ورسوله نوح عليه السلام ، في كل عمل من أعماله ، فعند صنع السفينة قال تعالى :

﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ .

وعن السفينة وهي تجري في موج كالجبال قال تعالى :

﴿ تجري بأعيننا ﴾ . أي بحفظنا وحراستنا وتقديرنا ، ولن تتغلب جيوش الدنيا

كلها على قلة مؤمنة يحفظها ويرعاها الله ، ورحم الله من قال :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وفي مواضع كثيرة بين الله لنا كيف استجاب لنوح :

﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه ... ﴾ .

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾ .

ونحن اليوم عندما نوثق صلتنا بالله ، ونكثر من الالتجاء إليه ، وننتظر النصر والتمكين منه وحده سينصرنا ، وسوف يأخذ أعداءنا أخذ عزيز مقتدر .

فما بال ناس من الناس ينتظرون النصر من أمريكا أو من السوفييات ، أو من الأحلاف التي يعقدونها مع الكافرين ، أو يعتمدون على انحرافات بعضهم ويسموننا سياسة !! .

ليس والله هذا الحل بحل ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

٣ - كان أتباع نوح عليه السلام قلة قليلة . قال تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ قُلْنَا اخْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ^(١) ﴾ .

كما كان أتباع معظم الأنبياء قلة قليلة ، ومع ذلك كان الله يؤيدهم بنصره ، وهو القائل :

﴿ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ^(٢) ﴾ .

ومن الناس من يظن أن النصر مرتبط بالكثرة وهذا غير صحيح حتى في المقاييس الجاهلية ، وما أمر فيتنام مع الولايات المتحدة ، أو أمر إسرائيل مع الدول العربية عنا ببعيد .

فعلى الذين يتفاخرون بالجموع الغفيرة التي تسير في ركبهم أن يعيدوا النظر في حساباتهم ، فقد تكون جموعهم — إن كانوا صادقين — عبثاً عليهم ، وليست عوناً لهم ، وعليهم أن يعلموا أن القلة المؤمنة المتفوقة في مختلف المجالات ، لا بد أن تنتصر ، إن هي أخذت بأسباب النصر الإلهية والمادية الصناعية .

٤ - مامن كربة إلا ويتبعها فرج ، وإن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، ولهذا كان جزاء الله لنوح عليه السلام عظيماً ، لقد مكنه الله في الأرض بعد أن طهرها من الكافرين المفسدين ، ولم يبق على وجه المعمورة إلا مؤمن موحد .
وأخذ الله من رسوله ولداً كافراً فأبدله به أولاداً مؤمنين ، ومن فضل الله على نبيه أن أهل الأرض جميعاً أصبحوا من أولاده .

قال تعالى :
﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ^(٣) ﴾ .

(١) - سورة هود الآية ٤٠ .

(٢) - سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

(٣) - سورة الصافات الآية ٧٧ .

وأخرج الإمام أحمد عن سمرة أن النبي ﷺ قال : « سام أبو العرب ،
وحام أبو الحبش ، ويافت أبو الروم »^(١) .

إن الذين يغفلون عن حكم الله في ابتلاء الدعاة العاملين في سبيله
مخطئون لسببين :

الأول : قد يكون الخير كل الخير للداعية الذي يتليه الله برده أو ولده أو زوجه أو
بهلاكهما ، وما عليه إلا أن يستنفذ طاقاته كلها في تبليغ أهله وذويه
الدعوة ، ويحسن اعتماده على الله ، وثقته به ، ورضاه بقضائه وقدره ، فلا
يئأس ولا يقنط من رحمته ، ولا ينهار أو تخور قواه من أي مكروه يحل به ،
وليتذكر دوماً قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ أُنِيسَ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ^(٢) ﴾ .

أجل لقد كان الخير كل الخير لنوح عليه السلام في هلاك زوجه
وولده الكافرين .

الثاني : إن من سنن الله جلّت أسماؤه وصفاته ، أن يكون النصر بعد الابتلاء
والصبر . قال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ^(٣) ﴾ .

وبضدها تتميز الأشياء ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، والغث من
السمين .

(١) — رواه الامام أحمد في المسند : ٩/٥ — ١٠ ، والحديث إسناده متصل ورجاله ثقات ، ماعدا

عبد الوهاب الخفاف ففيه كلام لا يضر إن شاء الله تعالى . وقال صاحب الفتح الرباني

٣٩/٢٠ : رواه الترمذي وصححه الحاكم وأقره الذهبي وحسنه العراقي والسيوطي . اهـ .

(٢) — سورة النساء الآية ١٩ .

(٣) — سورة محمد الآية ٣١ .

خَلِيلُ الرَّسْعَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام

- ما بين نوح وإبراهيم
- المبحث الأول : نبذة عن حياة إبراهيم .
- المبحث الثاني : ما كان بين إبراهيم وأبيه آزر .

ما بين نوح وإبراهيم

لاندري متى حدث الشرك بعد نوح عليه السلام ، وكل الذي نعلمه من القرآن الكريم أن الله استخلف عاداً في الأرض بعد قوم نوح . قال تعالى على لسان هود عليه السلام :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(١) ﴾ .

وكانت قبيلة عاد ^(٢) تسكن الأحقاف — ما بين اليمن وعمان — ، وقد حباهم الله نعماً وافرة ، وخيرات لا تحصى ، ففجروا العيون ، وزرعوا الأرض وشادوا القصور ، وزادهم جلّ وعلا فوق ذلك بسطة في أجسامهم ، وقوة في أبدانهم ، ولكنهم لم يشكروا الله على آلائه ، بل اتخذوا أصناماً يعبدونها ويستنصرون بها في الشدائد .

فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام ، فكان من أوسطهم نسباً ، وأحسنهم خلقاً ، وأرجحهم عقلاً ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، ونبذ ما يعبدون من حجارة لا تجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنهم ضرراً .

(١) — سورة الأعراف الآية ٦٩ .

(٢) — عاد من القبائل العربية العاربة أو البائدة ، وهم من نسل سام بن نوح ، ويسمون عاداً الأولى أو عاد إرم

ذات العماد ، أما العرب الذين هم من نسل اسماعيل فيسمون العرب المستعربة . عن البداية والنهاية

قال تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُم هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ^(٣) ۞ ﴾ .

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُم هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ^(٤) ۞ ﴾ .

فرد عليه الملائ من قومه أسوأ رد ، واتهموه بشتى التهم . قال تعالى :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ^(٥) ۞ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ، وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ، إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ^(٦) ۞ ﴾ .

ولما طغت عاد ، ولم ينفع التذكير ولا الانذار فيهم ، أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً فأهلكتهم ، وجعلتهم عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَفَرَى الْقَوْمُ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ^(٧) ۞ ﴾ .

وبلغ الحمق بهم منتهاه أنهم عندما رأوا السحاب فرحوا ، وظنوا أنه مطر غزير جاء بعد أن حبسه الله عنهم بضع سنين ، فلما أظلمت سحابة سوداء فزعوا ، وزاد

(٣) — سورة الأعراف الآية ٦٥ .

(٤) — سورة هود الآية ٥٠ .

(٥) — سورة الأعراف الآية ٦٥ .

(٦) — سورة هود الآية ٥٣ .

(٧) — سورة الحاقة الآية : من ٦ إلى ٨ .

فرعهم عندما هبت ريح عقيم . قال تعالى :

﴿ فلما رأوه عارضاً مستقْبَلًا أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطُرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ . تدمرُ كل شيءٍ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ^(٨) ﴾ .

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : مارأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لهوآته ، إنما كان يتسم . قالت : وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِفَ في وجهه . قالت : يارسول الله ، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ، فقال : « يا عائشة ، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح . وقد رأى قوم العذاب — فقالوا هذا عارض ممطُرنا — » ^(٩) .

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به .. وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سرى عنه .

ونجى الله هوداً والذين آمنوا معه ، وما آمن معه إلا قليل .

قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ^(١٠) ﴾ .

وسبحان الذي حفظ فئة قليلة من الناس من عذاب غليظ بعد أن عم

(٨) — سورة الأحقاف الآية ٢٤ .

(٩) — رواه البخاري في صحيحه ، انظر فتح الباري ١٠/١٩٩ . ولهواته جمع لهاة وهي اللحمة المطبقة في

أقصى سقف الفم [مختار الصحاح] .

(١٠) — سورة هود الآية ٥٨ .

العذاب قومهم الكافرين ، وهم يعيشون بين أظهرهم ، ولا يسأل مسلم جاد : كيف تم هذا لأن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، واستحق قوم عاد لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لأنهم كفروا بهم وجحدوا بآياته ، وعصوا رسوله ، واتبعوا وانقادوا لكل جبار ظالم . قال تعالى :

﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة . ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود(*) ﴾ .

انظر لقوله تعالى : ﴿ وعصوا رسله ﴾ مع أنهم عصوا رسولاً واحداً — هود — ، وفي هذا تأكيد من الله جلت قدرته أن عصيان رسول واحد عصيان لجميع رسل الله سبحانه وتعالى لأن دعوتهم وأهدافهم واحدة في كل عصر . ألا بعداً لعاد قوم هود !! .



(*) — سورة هود الآية ٦٠ .

صالح عليه السلام

ثمود قبيلة عربية مشهورة ، سميت باسم جدها ثمود بن عامر من نسل سام بن نوح ، وكانوا يسكنون الحجر — بين الحجاز والشام — ، وذكرهم في القرآن يأتي بعد قوم عاد . قال تعالى :

﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ، وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا ﴾ (١٠) .

لقد كانت أرضهم جنات وعيون ، ومنازلهم بيوتاً فارهة وقصوراً شامخة ، وكانوا سادة الناس وملوك الأرض .. لكنهم لم يشكروا الله على نعمه ، بل زادوا فساداً وبعداً عن الحق ، وعبدوا الأصنام من دون الله جلّت قدرته .

فبعث الله فيهم أخاهم صالحاً ، فنهاهم عن عبادة الأصنام ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له . قال تعالى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (١١) .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (١٢) .

(١٠) — سورة الأعراف الآية ٧٤ .

(١١) — سورة هود الآية ٦١ .

(١٢) — سورة النمل الآية ٤٥ .

والملا من ثمود كعادة الملا في كل عصر ومصر ، كذبوا نبيهم ، واستغربوا كيف ينههم صالح عن عبادة آلهتهم الوطنية التي ورثوا عبادتها عن آبائهم وأجدادهم . قال تعالى :

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ؟ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ^(١٣) ﴾ .
وقال :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ^(١٤) ﴾ .

لقد كان صالح مرجوا فيهم قبل الهدي والنبوة ، أما وقد شرفه الله بالحكمة والنبوة فأصبح فيهم متهما بالكذب .. وهذه ضريبة يدفعها الأنبياء ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وما زلنا نسمع من عباد الطاغوت مثل هذه الأقاويل الشائنة .

وحاول الملا أن يظهروا للناس عجزه ، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية تبين صدق رسالته ، فقال لهم هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، وإياكم أن تمسوها بأذى ، ولها أن تأكل في أرض الله كيفما تشاء ، وإن اعترضتم طريقها فسوف يأخذكم الله بعذاب أليم .

فسخروا من كلامه وعقروا الناقة ، قال تعالى :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ^(١٥) ﴾ .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ فعقروا الناقة ﴾ ، مع أن أشقاهم هو الذي عقرها ،

(١٣) — سورة هود الآية ٦٢ .

(١٤) — سورة الشعراء الآية ١٥٣ و ١٥٤ .

(١٥) — سورة الأعراف ، الآية ٧٧ .

ولكن الهلاك شملهم لأنهم كانوا راضين بفعله .

وقول الله تعالى على لسانهم : ﴿ يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ ، ومن قبل قال قوم نوح لنبهم مثل هذا القول الذي يدل على استخفافهم بوعيد الله ، واستعجالهم عذابه ، كما يدل على تشابه مواقف المشركين من أنبياء الله .

وكان الله لثمود بالمرصاد ، لقد أخذهم بالصيحة أخذ عزيز مقتدر . قال تعالى :

﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾ (١٦) .

فتولى صالح عنهم بعد أن نجاه الله ومن آمن معه ونظر إلى جشهم الهامدة . قال تعالى على لسانه :

﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربِّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ (١٧) .

وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، وقال لهم فيما قال ببس عشيرة النبي كنتم لنبكم كذبتُموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتُموني ونصرني الناس ببس عشيرة النبي كنتم لنبكم فقال له عمر يا رسول الله تخاطب أقواما قد جيفوا فقال :

(١٦) — سورة هود الآيات ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ .

(١٧) — سورة الأعراف ، الآية : ٧٩ .

« والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون » (١٨).

وتلك آثار ثمود شاهدة على ظلمهم يراها كل من مر بالحجر أي « مدائن صالح » .

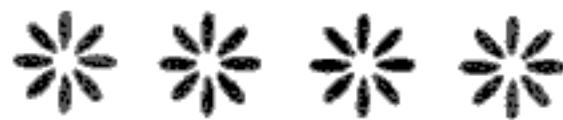
عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما : أن رسول الله ﷺ قال لأصحاب الحجر :

« لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم » (١٩).

ترى كم نرى من الآيات والعبر ثم لانتعبر ولا نتعظ ؟!

كم يمر بعضنا على مدائن صالح وغيرها فلا تحرك هذه الآثار مشاعر المارين ولا يذرفون دمعة واحدة ؟!

كيف يخشى رسول الله ﷺ من رؤية السحاب ، ونحن نرى الصواعق والزلازل والدمار وكأن شيئاً في حياتنا لم يكن ؟!! .



(١٨) — البداية والنهاية لابن كثير ١٣٨/١ . والبخاري في المغازي ٢٢٠/٧ فتح الباري ، ومسلم ١٦٤/٨ ، وأحمد ٢٩/٤ .

(١٩) — فتح الباري ١٠/٤٥٢ وحديث ابن عمر رواه البخاري في صحيحه .

نبذة عن حياة إبراهيم

ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن إبراهيم عليه السلام ولد بغوطة دمشق ، في قرية يقال لها برزة ، في جبل يقال له قاسيون ، والصحيح ما رواه ابن كثير عن ابن عساکر من غير وجه عن عكرمة أنه ولد في أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل .

وكانت ولادته بعد أن بلغ والده من العمر ٧٥ سنة ، وقد ولد له إبراهيم وناحور وهاران ، وولد لهاران لوط ، وإبراهيم هو الأوسط ، وهاران مات في بابل في حياة أبيه . واختلف المؤرخون في اسم أبي إبراهيم هل هو آزر أم تارح ؟!

والصحيح أن اسمه آزر لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢٠).

وقول الرسول ﷺ :

« يلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة .. إلى آخر الحديث » (٢١).

وقال ابن جرير الطبري : « والصواب أن اسمه آزر ولعل له اسمان علما أو أحدهما لقب والآخر علم » . وقال ابن كثير : « وهذا الذي قاله — أي الطبري — محتمل والله أعلم » .

(٢٠) — سورة الأنعام الآية ٧٤ .

(٢١) — رواه البخاري في صحيحه ، وسيأتي ذكره مفصلاً .

وقال ابن جرير الطبري : « وقال عامة السلف من أهل العلم : كان مولد إبراهيم عليه السلام في عهد نمروذ بن كوش » .

ونمروذ بن كنعان بن كوش كان حاكماً مستبدّاً جباراً ، كانت رعيته تتقلب في دياجير الجهل والضلالة ، كما كانوا يعبدون الحجارة الصماء والتمائيل البكماء . وقد استخف نمروذ بقومه فنصب نفسه إلهاً لهم ، ودعا الناس إلى عبادته فأتاعوه لأن الأصنام الناطقة أفضل من الأصنام الجامدة ، ومن جهة أخرى فطاغوت بابل ينفع ويضر ، ويستطيع أن يجعل الفقير غنياً ، والعزيز ذليلاً لأنه متحكم بأرزاق جزء مهم من سكان المعمورة . عن ابن عباس وغيره : « كانت الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة : نمروذ ، وسليمان بن داود ، وذو القرنين ، وبخت نصر : مؤمنان وكافران » .

في هذه البيئة الفاسدة ولد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام . قال ابن كثير : « كل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامراته وابن أخيه لوط عليهم السلام » .

وكان أبوه آزر من ألد أعدائه ، وكذلك كان أقرباؤه وأشقائه وأترابه ، وهذا يعني أنه كان غريباً بين أهله وذويه .

ولما شب إبراهيم تزوج بامرأة تسمى — سارة — ، وكانت عقيماً لاتلد ، ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط ، كما حكاه السهيلي ، فقد أبعد النجعة وقال بلا علم ، ومن ادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً فليس له على ذلك دليل . ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت — كما هو منقول عن الربانيين واليهود — فإن الأنبياء لا تتعاطاه . والله أعلم .

وقد عرف إبراهيم عليه السلام — منذ نعومة أظفاره — بصائب رأيه وثاقب فكره أن الله واحد أحد ، ليس له شريك في الملك ، وألقى الله في قلبه كره الأصنام التي كان يعبدها قومه لأنها لا تجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنهم ضرراً .. ونحن لانعلم متى ابتعثه الله بالرسالة ولم كان سنه ؟! . وقد وردت اشارات عامة في القرآن في هذا

الموضوع منها قوله تعالى :

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ (٢٢).

أي كان الله يعلم عنه رجاحة العقل ، وشدة الذكاء ، وقوة الحجة وفصل الخطاب .

وقوله تعالى :

﴿ وإذا ابتلي إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتني قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ (٢٣).

لم يبين الله لنا ماهذه الكلمات التي ابتلاه بها ، وحسبنا أن نعرف أنها تكاليف ، فأتمها كاملة غير منقوصة .. وفي آية أخرى وصفه الله تعالى بالوفاء ، بل جعل الوفاء جزءاً من خلقه . قال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ .

أما تفسير قوله تعالى : ﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ فيقول الشيخ محمد أحمد العدوي :

« ولم يقل فقال إني جاعلك ليدلنا على أن هذه الإمامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات ، فإن الإمامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهي لا تنال بكسب الكاسب ، والمراد أن إبراهيم عليه السلام جدير بذلك المنصب الجليل وهو إمامة الناس ، فالله تعالى قد جعل الرسالة في مكانة هو أهل لها » (٢٤) هـ .

حسبنا أن نعلم من سيرة إبراهيم عليه السلام أن الله ابتعثه بالرسالة وهو في بابل ، فقام بالواجب الذي أمره الله به خير قيام ، وصبر على الأذى والابتلاء ، وقابل التهديد والوعيد بعزيمة أشد رسوخاً من الجبال .. وعندما تأكد من إعراض قومه عن دعوته هاجر في أرض الله الواسعة يذر بذور الإيمان في كل أرض تطأها قدماه ،

(٢٢) — سورة الأنبياء الآية ٥١ .

(٢٣) — سورة البقرة الآية ١٢٤ .

(٢٤) — دعوة الرسل إلى الله تعالى ، محمد أحمد العدوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ٤٠ .

فاستحق بصبوه ودأبه أن يكون أباً للأنبياء ، وإماماً للأتقياء ، وقدوة للموحددين
الأمناء .

ونظراً لأهمية الدور الذي قام به إبراهيم عليه السلام فقد ذكرت قصته في خمس
وعشرين سورة وفي ثلاث وستين آية من القرآن الكريم ، كما ارتبطت سيرته عليه
السلام بسيرة ابن أخيه لوط عليه السلام ، وبسيرة ولديه اسماعيل وإسحاق عليهما
السلام ، بل ارتبطت سيرته بسيرة كل من جاء بعده من الأنبياء لأنهم من نسله
وذريته ، وكان مسك الختام سيد ولد آدم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام^(٢٥) .



(٢٥) — من أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذا الموضوع : البداية والنهاية ١/١٤٠ لأنه يهتم بتحقيق
الروايات وتمحيصها على الأغلب ، كما اعتمدت على تاريخ الطبري ١/٢٣٤ ، والكامل لابن الأثير .

ما كان بين إبراهيم وأبيه آزر

أولاً — إبراهيم يحاور أباه :

كان آزر يعبد الأصنام ، بل كان ينحتها ويبيعها ، وشر الأمور أن يعتقد الإنسان عقيدة باطلة ، ثم تكون — هذه العقيدة — مورد رزقه ، ومحط أمله وغاية سعيه .
وبدهي أن يكون والد إبراهيم أول المدعوين لأنه أقرب الناس إليه ، وأولاهم بالهداية ، وقد أمر الله تعالى المصطفى ﷺ أن يبدأ بعشيرته الأقربين ، وكذلك كان منهج أنبياء الله جميعاً في الدعوة .
والحديث عن دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٦) .

وقوله :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (٢٧) .

(٢٦) — سورة الأنعام الآية ٧٤ .

(٢٧) — سورة الأنبياء الآية ٥١ و ٥٢ .

وقوله :

﴿ وَائْتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٢٨).

وفي الآيات التي وردت في سورة مريم صورة واضحة للمناظرة التي جرت بين إبراهيم وأبيه . قال تعالى :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ، قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تُنْتِهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ، قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ، وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ (٢٩).

— ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ .

يأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يذكر خليل الرحمن إبراهيم الذي استحق من فرط صدقه أن يسميه الله « صديقاً نبياً » ، ووصفه بالصدق سبق وصفه بالنبوة .

لقد كان إبراهيم صادقاً مع قومه قبل النبوة ، كما كان صادقاً أميناً في تبليغ الرسالة وفي استسلامه وانقياده لأوامر ربه .

— ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ ﴾ : استهل خليل الرحمن حوارَه مع أبيه بقوله « يَا أَبَتِ » : وهي من أقوى الروابط وأوثقها . يقول الشيخ محمد أحمد العدوي :

« ... ومن ناحية أخرى يحاول إبراهيم أن يكسر بذلك الأسلوب الجذاب حدة أبيه ، حتى يستطيع أن يبلغه رسالة الله ، ويقم عليه حجته وهو هادئ غير

(٢٨) — سورة الشعراء الآية ٦٩ و ٧٠ .

(٢٩) — سورة مريم الآيات من ٤١ إلى ٤٨ .

ثائر ، بعد أن ناداه بذلك الأسلوب الموجب للحنان والعطف . قال له في أدب :
— ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ .

كيف تعبد يا أبتي إلهاً لا يسمعك إذا ناديت به ، ولا يبصرك إذا اقتربت منه أو أدبرت عنه ، ولا يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك مكروهاً .. وهذه صورة من صور كثيرة كان إبراهيم عليه السلام يبين لأبيه من خلالها عجز الأصنام التي يعبدونها ، ويدعوه إلى التفكير والاستفادة من نعمة العقل .

— ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ .

لم يبدأ إبراهيم حوارَه مع أبيه بالحديث عن غزارة علمه ، وقوة حجته ، وشدة ذكائه ، كما أنه لم يصف أباه بالجهل ، ولو قال هذا وذاك لكان صادقاً ، وإنما قال له — وهو الصادق الأمين عنده — يا أبتي لقد خصني الله بفضل منه فاستمع لهذا الأمر الجديد واستجب لدعوة الحق تكن من الفائزين في الدارين وحذار يا أبتي أن تستمر على ما أنت عليه فتكن بذلك عبداً للشيطان ، ولن تجتمع عبادة الرحمن وعبادة الشيطان في قلب مؤمن .. ويختم إبراهيم حديثه مع أبيه بقوله « يا أبتي » أي بالنداء اللطيف الرقيق الذي بدأ به ، وبخوفه عليه من عذاب الله في الدنيا والآخرة .

— ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ تَتَنَزَّعْتَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ لَنُنَزِّلَ لَكَ نَاراً مِنْ سَمَاءٍ مُبَارَكَةٍ وَقَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنْتُ دَاعِياً إِلَى آلِهَتِي الَّتِي كُنْتُ دَاعِياً إِلَىهَا وَلَمْ يُكُنْ لِيَ إِلهٌ غَيْرُهَا فَاتَّبِعْنِي أَمَّا بِتِغْوَا دِئَارِي وَمَا كُنْتُ بِلَهُاتِكُمْ بِشَيْئاً مُؤْمِناً ﴾ .

أنكر آزر على ابنه أن يرغب عن آلهة قومه ، ولم يقل له في حوارَه يا ولدي ، وإنما ناداه باسمه « إبراهيم » ، ثم أخذ يهدده :

لئن لم تنته يا إبراهيم عن ضلالك ، وتعود عن باطلك لأرminك بالحجارة ، وما عليك الآن إلا أن تخرج من داري وتعتزل مجالسي .

— ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ .

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التي هي المشاركة لا التحية ، قال الطبري : معناه أمانة مني لك . وقال النقاش : حلیم خاطب سفيهاً ،

وقال بعضهم في معنى تسليمه : هو تحية مفارق^(٣٠) .. ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾^(٣١).

وقوله في وصف عباد الرحمن :

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾^(٣٢).

وقوله :

﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾^(٣٣).

— ﴿ وَأَعْتَزَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَكُونَ بِدَعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾.

اعتزل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه ، كما اعتزل ما يدعون من دون الله من أصنام وأوثان ، فكان لا يشاطرهم في أفراحهم القومية ، ولا يتهج في أعيادهم وندواتهم ، ولا يذكر آلهتهم إلا بالنقد والتجريح .. ومع ذلك كان باراً بأبيه حريصاً على هدايته ، وفي هذا دليل على أن المراد بقوله تعالى « سلام عليكم » سلام متاركة لاسلام تحية .. وفي آية أخرى يبين الله جل وعلا كيف أكرم الله خليله عندما اعتزل قومه وما كانوا عليه من شرك وضلالة . قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَهْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾.

— وفي حوار إبراهيم مع أبيه عبر كثيرة من أهمها :

١ — إن كثيراً من الدعاة يتحدثون — في كتبهم ودروسهم — عن أنفسهم أكثر

(٣٠) — تفسير القرطبي ١١/١١١ .

(٣١) — سورة القصص الآية ٥٥ .

(٣٢) — سورة الفرقان الآية ٦٣ .

(٣٣) — سورة لقمان الآية ١٥ .

مما يتحدثون عن الدعوة ، وفي مناظرتهم للآخرين يتعالون عليهم ، ولا يتركون لهم مجالاً
لعرض مشكلاتهم ، ويغضبون لأنفسهم لأتفه الأسباب ، ويستولي الحقد على
قلوبهم .. فعلى هؤلاء وغيرهم أن يتأسوا بإبراهيم عليه السلام في صدقه ، وأدبه ،
وتواضعه ، وتجرده ، واحترامه للآخرين ، وعدم انتصاره لنفسه .

٢ — كان قلب آزر كجلمود صخر ، بل إن جلمود الصخر أكثر ليونة منه . قال
تعالى :

﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ،
وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (٣٤) .

وكان آزر جاداً فيما يؤمن ويعتقد ، وكانت الأصنام والأوثان أحب إلى نفسه من
فلذة كبده وأقرب الناس إليه . وكان إبراهيم عليه السلام كذلك جاداً فيما يؤمن
ويعتقد ، وعندما أصر أبوه على شركه اعتزله ، وناصبه العداوة والبغضاء رغم ما كان
يتحلى به من حلم وعطف .

ومن المؤسف أن كثيراً من دعاة الاسلام يخلطون مصالحهم بالدعوة ، ويتوددون
إلى أصحاب السلطان رغم عداوتهم للإسلام والمسلمين ، ويتوددون كذلك إلى
المشركين والمنافقين من آبائهم وإخوانهم وأقربائهم وهم الذين يقرأون في كتاب الله :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا
آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم ﴾ (٣٥) .

ولن تنتصر الدعوات إلا إذا كان حملتها من المتأسين بإبراهيم ومحمد وسائر أنبياء
الله عليهم أفضل الصلاة والسلام .

(٣٤) — سورة البقرة الآية ٧٤ .

(٣٥) — سورة المجادلة الآية ٢٢ .

ثانياً — براءة إبراهيم من أبيه

قال تعالى :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٣٦).

سبب النزول : لما عزم الرسول ﷺ على فتح مكة ، وأخبر جماعة من أصحابه بوجهته ، كان منهم حاطب . فعمد حاطب فكتب كتاباً إلى أهل مكة وأرسله مع امرأة مشركة يعلمهم بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأرسل رسول الله ﷺ علياً والزبير والمقداد فأدركوا المرأة في روضة خاخ فأخذوا منها الكتاب ، ولولا أن حاطباً كان من أهل بدر ، وأن رسول الله ﷺ قد علم أنه ما أراد من عمله خيانة ، ولو كان رضي الله عنه كافراً مرتداً لأمر بضرب عنقه (٣٧).

والتأسي هنا بإبراهيم يكون في ثلاثة أمور :

أولاً : التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله .

(٣٦) — سورة المتحنة الآية ٤ .

(٣٧) — سبب نزول سورة المتحنة وردت في كتب التفسير ، كتفسير الطبري ، وابن كثير ، ورواها البخاري في

صحيحه في كتاب الجهاد — باب الجاسوس — .

ثانياً: الكفر بهم .

ثالثاً: إبداء العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها أبدأً إلى الغاية المذكورة حتى يؤمنوا بالله وحده ، وهذا غاية في القطيعة بينهم وبين قومهم ، وزيادة عليها إبداء العداوة والبغضاء أبدأً ، والسبب في ذلك هو الكفر ، فإذا آمنوا بالله وحده انتفى كل ذلك بينهم (٣٨).

أما استغفار إبراهيم لأبيه فكان في بداية دعوته له ، وكان لا ينتظر منه الاصرار على الشرك ، وإنما كان يرجو له الهداية . قال تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (٣٩).

تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه ، كما تبرأ نوح عليه السلام من زوجه وولده ، وكما تبرأ رسول الله ﷺ من أقرب أقربائه المشركين . يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تعقيب له على هذه الآيات :

« وينظر المسلم فإذا له نسب عريق ، وماض طويل ، وأسوة ممتدة على آماد الزمان وإذا هو راجع إلى إبراهيم . لافي عقيدته فحسب ، بل في تجاربه التي عاناها كذلك . فيشعر أن له رصيذاً من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه . إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله ، الواقفين تحت راية الله ، قد مرت بمثل ما يمر به ، وقد انتهت تجربتها إلى قرار اتخذته . فليس الأمر جديداً ولا مبتدعاً ولا تكليفاً يشق على المؤمنين .. ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها ، إذا انبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته . فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال .. الشجرة التي غرسها أول المسلمين .. إبراهيم .. » (٤٠).

(٣٨) — أضواء البيان ١٣٨/٨ .

(٣٩) — سورة التوبة ، الآية : ١١٤ .

(٤٠) — في ظلال القرآن ، المجلد الثامن ، جزء ٢٨ ، ص ٦٢ .

وهكذا فصل الايمان بين ابراهيم عليه السلام فكان اماماً للمتقين ، وبين أبيه آزر فكان من الهالكين المسوخين .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال :

« يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي ؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ : الْيَوْمَ لَا أَغْصِيكَ ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : يَا رَبُّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ ، فَأَيُّ خَزْيٍ أُخْزِيَ مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ : مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذَبْجٍ مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ » (٤١).

قال الحافظ ابن حجر : وفي رواية إبراهيم بن طهمان : فيؤخذ منه فيقول يا إبراهيم أين أبوك ؟ قال أنت أخذته مني ، قال انظر أسفل ، فينظر فإذا ذبيح يتمرغ في نتنه . وفي رواية أيوب : فيمسح الله أباه ضبعاً فيأخذ بأنفه [أي يأخذ إبراهيم بأنفه بأصابعه كراهة لرائحة نتنه] فيقول :

يا عبدي أبوك هو ؟ فيقول لا وعزتك . وفي حديث سعيد فيحول في صورة قبيحة وريح منتنة في صورة ضبعان . وزاد ابن المنذر من هذا الوجه : فإذا رآه كذا تبرأ منه : وقال لست أبي .

وقال الحافظ : قيل الحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم منه ولئلا يبقى في النار على صورته فيكون غضاضة على إبراهيم » اهـ (٤٢).

— وإذا كان إبراهيم وهو خليل الرحمن لا ينفع أباه يوم القيامة ، ولا ينقذه من الخلود في نار جهنم ، ويقول الحق جل وعلا على لسان إبراهيم :

﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

(٤١) — رواه البخاري في صحيحه ، فتح الباري ١٩٧/٧ ، والأبعد صفة أبيه لأنه شديد البعد عن الله ، وقيل لأنه هالك .

(٤٢) — فتح الباري ١١٥/١٠ و ١٩٧/٧ .

— وإذا كان خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والسلام لا ينفع أمه وأباه يوم القيامة ، بل عاتبه ربه لأنه كان يستغفر لعمه أبي طالب .
قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٤٣).

فما بال ناس من الناس يشدون رحالهم إلى قبور الأولياء والصالحين ، فيطوفون حولها ، ويدبحون لها ، ويسألون الأموات أموراً لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى .. لقد تناسى عباد القبور أن الدعاء عبادة ولا يكون إلا لله تعالى ، أما أنبياء الله وأوليائه فلا يملكون كشف الضر عن أحد . قال تعالى :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلاً ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ (٤٤).

ومن الجدير بالذكر أن مشركي قريش كانوا يؤمنون بالله ، ويعتقدون أن أصنامهم تقرهم من الله زلفى . قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (٤٥).

إن المسؤولية عند الله فردية ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، ومدار النجاة في الآخرة على الايمان الصحيح المستلزم للعمل بما جاء به الرسل عليهم السلام ، وليس بعبادة أشخاص الأولياء والرسل ، والشفاعة لا تكون إلا بإذن الله تعالى ، والمشركون لا يغفر الله لهم إذا ماتوا على كفرهم ولا تنفعهم شفاعة الشافعين .

(٤٣) — سورة التوبة ، الآية : ١١٣ .

(٤٤) — سورة الإسراء ، الآية : ٥٦ و ٥٧ .

(٤٥) — سورة الزمر ، الآية : ٣ .

المبحث الثالث : صراع إبراهيم مع قومه

أولاً — مشكلة التقليد .

ثانياً — دعوة إبراهيم لقومه .

ثالثاً — حوار مع التمروود .

رابعاً — بين طاغوت إبراهيم وطواغيت عصرنا .

خامساً — إبراهيم يحطم الأصنام ، ورأي أهل السنة والجماعة في

كذبات إبراهيم الثلاث .

سادساً — إلقاء إبراهيم في النار .

سابعاً — هجرة إبراهيم .

المبحث الثالث

صراع إبراهيم مع قومه

أولاً — مشكلة التقليد :

أهم مشكلة كانت تواجه إبراهيم عليه السلام في دعوته لقومه : الجمود وشدة التعصب لعقيدة الآباء والأجداد ، والإصرار على عدم التغيير والتجديد ، فعندما كان إبراهيم يحاول إقناع أبيه آزر ، وعندما كان يسوق له الحجج الدامغة والأدلة المفحمة ، كان الوالد المشرك قد عطل عقله ، وأنكر على ابنه مخالفته لعقيدة الآباء والأجداد :

﴿ أَرَأَيْبَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجَنَّكَ وَاهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾ .

وكان رد قوم إبراهيم على نبيهم لا يختلف عن رد أبيه . قال تعالى :

﴿ وَاللَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ .. ﴾^(١) .

وقال :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ، إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾^(٢) .

(١) — سورة الشعراء ، الآيات من ٦٩ إلى ٧٤ .

(٢) — سورة الأنبياء ، الآيات من ٥١ إلى ٥٤ .

ولقد كان هذا نهج أعداء جميع رسل الله ، وتكأتمهم في صد الناس عن الحق ، وكان الملائكة يزعمون أنهم وكلاء شرعيون لعقيدة الآباء والأجداد ، وباسم هذه العقيدة يظلمون الناس ، ويفسدون في الأرض ، ويهلكون الحرث والنسل .

أما جمهور الناس وعامتهم فلقد ألفوا هذه الحياة ، واعتادوا أن يكونوا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .

ورحم الله الزمخشري إذ يقول :

« ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان ، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلّدوا آباءهم في عبادة التماثيل ، وعفروا لها جباههم ، وهم معتقدون أنهم على شيء ، وجادون في نصرة مذهبهم ، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم ، وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم »^(٣) .

وحسبنا في الرد على المقلدين قول أهل النار :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ »^(٤) .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ »^(٥) .

وعباد الأصنام المقلدون كانوا يخوفون خليل الرحمن أن يصيبه سوء من آلهتهم ، ولا غرابة في ذلك فمن فرط سخفهم أنهم يظنون أنها تنفع وتضر . قال تعالى :

﴿ وَحَاجَّةُهُ قَوْمُهُ قَالَ الْهَاجُوتِيُّ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا

(٣) — دعوة الرسل إلى الله تعالى ، محمد أحمد العدوي ص ٥٤ .

(٤) — سورة الملك ، الآية ١٠ و ١١ .

(٥) — سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

أَنْ يَشَاءَ رَبِّي وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٦﴾

ونحن اليوم نواجه ما كان يواجه إبراهيم عليه السلام ، فمعظم الناس لا يفكرون إلا بعقول قادتهم ، ولا يرون إلا ما يرونه دون النظر أو الاهتمام بالدليل ... ومازلنا نسمع ملايين القصص التي يقول أصحابها : تكلم فلان في القطب الفلاني ثم جاءه في المنام وضربه ضرباً شديداً ما زالت آثاره باقية في جسمه ، بل وإذا طلبت اليمين من عباد القبور قد يحلفون بالله كاذبين ، لكنهم لا يقبلون ولا يجراؤون أن يحلفوا بأوليائهم الأموات كاذبين .

فلننظر كيف واجه إبراهيم عليه السلام هذه المشكلة مع قومه ؟!



(٦) — سورة الأنعام ، الآية ٨٠ .

ثانياً — دعوة إبراهيم لقومه

لم يجمد إبراهيم عليه السلام على أسلوب واحد في دعوة قومه وأهله ، فتارة كان يحاج والده وأهل بيته بشكل افرادي ، وتارة يحاج قومه و هم مجتمعون في أعيادهم وحفلاتهم العامة ، وتارة يحاج طاغوتهم المتأله الثمرد ، وتارة كان يستفز قومه في مواقف تفرض عليهم إعادة النظر في كل مألوفه من عادات وتقاليد .. وقد فصلنا القول — فيما مضى — في دعوته لأبيه وما كان بينهما من مناظرات ومواقف وسنتحدث فيما يلي عن دعوته لقومه :

مكث خليل الرحمن سنوات طويلة يدعو قومه إلى وحدانية الله وعدم الإشراف به ، وقد جاء ذكر هذه الدعوة في آيات كثيرة من كتاب الله .
من ذلك قوله جل وعلا :

﴿ وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَال أَلْحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .
وقوله :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمُهُ مَا تَعْبُدُونَ .. ﴾ .
ويعضي السياق في سورة الأنبياء والشعراء في الحديث عن مناظرته لقومه في أمر آلهتهم وبيان أنها لاتصلح أن تكون آلهة تعبد من دون الله تعالى .
وقوله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ ، إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمُهُ مَاذَا تَعْبُدُونَ ، أَتُنْفَكُوا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ .

ومن بين السور الكثيرة التي تحدثت عن مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه نختار آيات من سورة الأنعام لنعيش في ظلها بعض الوقت . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيِّهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .. ﴾ (٧).

— استطاع إبراهيم بما آتاه الله من حكمة أن يحجج^(٨) قومه بطريق الاستدراج ، فعندما رأى كوكباً بعد أن أرخى الليل ستاره قال بأسلوب المتهم الذي يتحدث بمنطقهم ويسوق أقوالهم ليرد عليها : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ فلما غاب ذلك الكوكب قال : ﴿ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ ، ثم ترقى معهم من الكوكب إلى القمر ، فلما غاب أكد لهم أنه لا يصح أن يكون إلهاً لأنه يزغ تارة ويغيب أخرى ، ثم ترقى معهم إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً فبين بعد أن أفلت أنها مسخرة مسيرة مقدره مربوبة .

وبعد أن أفلت الكواكب كلها — والقوم يشاهدون هذه الظاهرة — أعلن إبراهيم براءته من كل ما يعبده قومه من دون الله من أصنام وأوثان وكواكب وطغاة متجبرين لأنها لا تنفع ولا تضر ، ثم أخذ يحدثهم عن صفات الله تعالى : فهو يطعم ، ويسقي ، ويشفي ، ويميت ، ويبعث الناس من قبورهم حفاة عراة غرلاً .

(٧) — سورة الأنعام من ٧٤ إلى ٧٨ .

(٨) — بعض المفسرين قالوا : إن هذه المناظرة حصلت مع قومه في بابل ، وقال آخرون ، ومنهم ابن كثير : إنها حصلت في حران لأن أهل دمشق وما حولها كانوا يعبدون الكواكب ، وليس مهما عندنا أين حصلت بل المهم أن سياق الآيات يؤكد أنه كان يحاجج قومه .

ولم يبق أمام قوم إبراهيم إلا زعمهم بأن آلهتهم ستلحق به الأذى إذا استمر في نقدها وتجريحها .. وهذه المقولة فندها الخليل ، وتحداهم إن كانت هذه الأصنام قادرة على الدفاع عن نفسها ورد الضرر الذي يلحقه الآخرون بها ، فكيف تنتظرون أن تكون قادرة على إلحاق الضرر بي ؟! . والنواقع يشهد على أن إبراهيم مضى عليه سنوات طويلة وهو يهاجم هذه الأصنام فأين ضررها عليه ؟!

ومن قبل ما كان قوم إبراهيم يسمحون لعقولهم أن تفكر بأفول هذه الكواكب أو بتفاهة تلك الأصنام لأن القضية عندهم غير قابلة للحوار ، وهل هم أكثر فهماً وأرجح عقلاً من زعمائهم وأجدادهم ؟! ، وما هو خليل الرحمن يحرك عقولهم المعطلة بطريقة استدراجية منطقية رائعة . قال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٩).

— قال بعض المفسرين : إن موعظة إبراهيم في الكواكب كانت حين خرج من السرب لما كان صغيراً ، وأنها كانت تعبر عن القلق الذي كان يعانيه إبراهيم قبل أن يؤمن بالله ، ويستدل هؤلاء المفسرون في تعضيد وجهة نظرهم بقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَرِنِي كَيْفَ لُخِّي الْمَوْقِ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَّيَطْمئنَّ قَلْبِي .. ﴾ (١٠).

وردنا عليهم من الوجوه التالية :

١ — القول بأن موعظة إبراهيم في الكواكب كانت حين خرج من السرب لما كان صغيراً ذكرها ابن اسحاق وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ، ولا سيما إذا خالفت الحق (١١).

(٩) — سورة الأنعام ، الآية ٨٣ .

(١٠) — سورة البقرة ، الآية ٢٦٠ .

(١١) — قصص الأنبياء لابن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ١/١٧٥ ، دار الكتب الحديثة مصر .

٢ — قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «لقد نفى الله الشرك عن إبراهيم ﴿وما كان من المشركين﴾ في عدة آيات، ونفى الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما»^(١٢).

٣ — قال عياض:

«لم يشك إبراهيم بأن الله يحيي الموتى ولكن أراد طمأنينة القلب وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء فحصل له العلم الأول بوقوعه وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿ربي أرنى كيف يحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾»^(١٣).

وقال القرطبي في نفي الشك عن إبراهيم:

«وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكوته ليكون من الموقنين».

وفي تفسير حديث رسول الله ﷺ يقول القرطبي: «لو كان شاكاً لكننا نحن أحق به، ونحن لانشك فإبراهيم عليه السلام أخرى ألا يشك فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم»^(١٤).

ومن غريب الأمور — والغرائب كثيرة — أن نسمع أصواتاً تردد أنه لا بد من الشك قبل الإيمان، وإبراهيم كان أول الشاكين، ورسول الله ﷺ قال نحن أحق بالشك من إبراهيم، والصحيح أن إبراهيم لم يكن شاكاً وهو الذي دعا الله أن يجنبه وبنه عبادة الأصنام، بل وهو الذي جاء ربه بقلب سليم أي لم يشك به قط.

(١٢) — أضواء البيان للشيخ الشنقيطي ١٨٠/٢.

(١٣) — رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري، فتح الباري ٢٢٢/٧.

(١٤) — تفسير القرطبي ٢٩٨/٢ و ٢٥/٧، ومنه الخبر الذي نقلناه عن عياض.

ثالثاً — حوار مع النمرود

قال الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ ، قَالَ أَنَا أُخَيِّ وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَأَبْهَتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٥).

— ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ : للتعجب من هذه الحاجة ، وغرور صاحبها وغباوته ، ولم يرد اسمه إهمالاً له ولأنه لا يستحق الذكر ، مع أن الذي حَاجَّ إبراهيم هو النمرود طاغية بابل الذي تكلمنا عنه فيما مضى .

— ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ : إن الذي حمله على هذا الموقف المشين هو أن الله آتاه الملك ، وبدلاً من أن يشكر الله ويسجد له كفر به وزعم أنه إله ويجب على شعبه أن يعبدوه من دون الله .. فكان الملك منشأً إسرافه في غروره وسبب كبريائه وإعجابه بقدرته .

— ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ ﴾ : ويبدو أن نمرود سأل إبراهيم في هذه المناظرة عن سبب تكسير الأصنام ، فقال له إبراهيم لا يصح أن تعبد لأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً ، وربى سبحانه وتعالى هو الذي يجب أن يعبد لأنه يحيي ويميت ، وفي هذا تحدٍ للنمرود .

(١٥) — سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

— ﴿ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيت ﴾ : أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ أَحْيِي مَنْ أَحْكَمَ عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ بِالْعَفْوِ عَنْهُ ، وَأُمِيت مَنْ شَتَّتْ إِمَاتَتُهُ بِالْأَمْرِ بِقَتْلِهِ .. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى غِبَائِهِ فَاِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْإِنْشَاءِ وَالتَّكْوِينِ لَا فِي اتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ فِي الشَّيْءِ الْمَكُونِ .

— ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ : لَمْ يَسْتَرْسِلْ إِبْرَاهِيمَ فِي جَدَلٍ حَوْلَ مَعْنَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ ، وَإِنَّمَا تَحْدَى الثَّمْرُودَ فِي قَضِيَّةِ الْخَلْقِ نَفْسَهَا ، وَلَكِنْ كَانَ التَّحْدِي فِي الشَّمْسِ وَلَيْسَ فِي الْإِنْسَانِ ، وَالْجَوَابُ عَلَى الْأَمْرِ الثَّانِي يُوَضِّحُ الْأَمْرَ الْأَوَّلَ .

— ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ : وَهِيَاتٌ لِلنَّمْرُودِ أَنْ يَأْتِيَ بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ ، وَهِيَاتٌ لَهُ أَنْ يَخْلُقَ ذَبَابَةً ، لَقَدْ أَدْرَكَتْهُ الْحَيْرَةُ ، وَدَهَشَ مِنْ قُوَّةِ حُجَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَسَكَتَ كِبْرِيَاءً لِأَنَّهُ لَمْ يَرْغَبْ فِي الْحَقِّ . ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، فَاللَّهُ جَلُّ وَعَلَا هُوَ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ ، وَقَدْ كَتَبَ لِلنَّمْرُودِ وَقَوْمِهِ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ الْكَافِرِينَ ، وَلَمْ يَشَأْ لَهُمُ الْهُدَايَةُ بِسَبَبِ فُسَادِهِمْ وَعِنَادِهِمْ .

وَهَكَذَا أَبْطَلَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَلِيلَ الثَّمْرُودِ ، وَبَيَّنَّ جَهْلَهُ ، وَأَجْمَعَهُ الْحُجَّةَ ، وَخَرَجَ مِنْ مَجْلِسِهِ مُتَنْصِراً .



رابعاً — بين طاغوت إبراهيم وطواغيت عصرنا

قال طاغوت إبراهيم: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ أي أقتل من شئت ، وأحكم على من شئت بالإعدام ثم أعفو عنه ، ولم يقل : أنا الذي خلقت السموات والأرض والإنسان والحيوان والنبات .

وطواغيت عصرنا يقتلون من شاعوا ، ويحكمون على من شاعوا بالإعدام ثم يعفون عنهم ، وفوق ذلك كله اتخذوا من أنفسهم أنداداً لله لأنهم سنوا القوانين والتشريعات وزعموا أن ذلك كله من حقوقهم وليست من حقوق الله .

وطاغوت إبراهيم سكت عنه سنوات طويلة كان خلالها يسفه آلهة قومه ، ويندد بطغيان الثمود ، ومن ثم قَبِلَ الطاغوت أن يناظر إبراهيم ، وتمت المناظرة التي شهدها القاضي والداني ، وانتصر إبراهيم وخرج من مجلس الطاغية سالماً معافى .

أما طواغيت عصرنا فيحكمون الأفواه ، ويقيدون الحريات ، ويستعبدون الناس ، ومن هاجم زعيماً من الزعماء يجد نفسه بعد أيام أو ساعات في سجون مظلمة ، ويسأل أهله وذووه عنه فلا يجدون جواباً ، هذا إن لم يمنعوا من مجرد السؤال ، أما مناظرة الطاغوت فدونها خرط القتاد .

ومن هنا نعلم أن طواغيت عصرنا أشد استبداداً وأكثر ظلماً من طاغوت إبراهيم .

خامساً — إبراهيم يحطم الأصنام

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ . قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنْ الشَّاهِدِينَ . وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ . قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَالِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفْلا تَعْقِلُونَ . قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ .

الأنبياء من الآية ٥١ إلى الآية ٧٣

— ﴿وَتَاللَّهِ لَا أَكِيدُنْ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْبَرِينَ﴾ (١٦).

كان لقوم إبراهيم عيد^(١٧) يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد ، فدعاه أبوه وقومه ليحضره فقال إني سقيم . قال تعالى :

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنْ سَقِمْ﴾ (١٨).

عرَّضَ لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ، ونصرة دين الله الحق ، فتركوه وشأنه ولو كانوا عالمين أنه سيحطم أصنامهم لما تركوه ، أما قوله تعالى : ﴿وَتَاللَّهِ لَا أَكِيدُنْ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْبَرِينَ﴾ قيل : إنه قال هذا خُفْيَةً في نفسه . وقال ابن مسعود : سمعه بعضهم .

— ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

عندما خلا الجو لإبراهيم ، ذهب إلى أصنامهم مسرعاً ، فوجدها في بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها ، فقال لها على سبيل التهكم والازدراء^(١٩) :

﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (٢٠).

أي راح يكسرها بقدم في يده كما قال تعالى : ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي حطاماً ، كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ . قيل إنه وضع القدم في يد الكبير ، إشارة إلى أنه غار أن تُعبد معه هذه الصُّغَار ! .

— ﴿قَالُوا مِنْ فَعَلْ هَذَا بَالِهْتَإِنَّ لِمَنِ الظَّالِمِينَ ، قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ

(١٦) — الآيات من ٥١ إلى ٥٦ سبق شرحها فيما مضى .

(١٧) — يبدو أن عيد قوم إبراهيم شبيه بأعياد عصرنا كعيد الاستقلال ، وعيد العمال ، وعيد الشجرة ، وعيد

ميلاد الطاغوت وما إلى ذلك من أسماء .

(١٨) — سورة الصافات ، الآية ٨٨ و ٨٩ .

(١٩) — قصص الأنبياء لابن كثير ١٧٨ .

(٢٠) — سورة الصافات ، الآية ٩١ و ٩٢ و ٩٣ .

إبراهيم ﴿ ١٠٠ ﴾ .

رجع القوم من عيدهم ، واعتزتهم الدهشة عندما رأوا الأصنام محطمة ، والحجارة مبعثرة ، وأعمامهم التقليد والجمود عن التفكير بهذه الآلهة التي لاتدفع عن نفسها ضراً

وكان السؤال الذي يردده كل لسان ﴿ من فعل هذا بآلهتنا ﴾ ؟! . إنه حدث جديد ومصيبة كبرى !! .

حدث جديد لم يكن له شبيه في تاريخهم ، ومصيبة كبرى تمس صميم اعتقادهم .

وأخذت قوات أمن التمرد تحقق فيما أسمته جريمة ، وبدأت تجمع أقوال الشهود ، واتجهت الأنظار إلى إبراهيم لأنه كان يذكر آلهتهم بالعيب والتنقص لها والازدراء بها .
— ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ .

وهذا الذي أراده خليل الرحمن عليه السلام ، لقد أقبل الناس — كل الناس — من كل حذب وصوب يشهدون المحاكمة ، ويسمعون أقوال الذي حطم آلهتهم .. وتقدم إبراهيم عليه السلام وسط هذه الجموع الحاشدة . تقدم ثابت الخطى ، مطمئن النفس ، غير عاىء بتهديدهم ووعيدهم .

— ﴿ قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ .

لماذا قال إبراهيم ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ ، ولم يقل أنا الذي حطمت أصنامكم ؟! ؟

وهل قول إبراهيم عليه السلام ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ ، وقوله ﴿ إني سقيم ﴾ ، وقوله عن سارة إنها أخته من الكذب الذي يستوجب التوبة ويخالف عضمة الأنبياء ؟! ؟

سنذكر فيما يلي ماصح من أحاديث في هذه المسألة ، ومن خلالها نبين موقف أهل السنة والجماعة ، ثم ندعم رأينا بأقوال العلماء الثقات الذين نطمئن

لأقوالهم .. ومن الله وحده نستمد العون والتوفيق :

الحديث الأول : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثاً » .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قال : لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلا ثلاث كذبات : ثنتين مِنْهُنَّ في ذاتِ الله عزَّ وجلَّ ، قوله — إني سقيم — وقوله — بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا — وقال : بينا هو ذاتَ يومٍ وسارةُ إذ أتى على جبارٍ من الجبابرة ، فقيل له : إنَّ هذا رجلٌ معه امرأةٌ من أحسنِ النَّاسِ فأرسلَ إليه فسأله عَنْهَا فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ : أُخْتِي . فَأَتَى سارةَ قَالَ : ياسارةُ ليسَ على وجهِ الأرضِ مؤمِنٌ غيري وغيرُكَ . وإنَّ هذا سألني فأخبرتهُ أنَّكَ أُخْتِي فلا تُكذِّبيني . فأرسلَ إليها . فلما دخلت عليه ذهبَ يَتَنَاوَلَهَا بيدهِ فَأَخَذَ ، فَقَالَ : ادعي الله لي ولا أضُرَّكَ ، فدَعَتْ اللهَ فَأُطْلِقَ ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأَخَذَ مِثْلَهَا أو أَشَدَّ ، فَقَالَ : ادعي الله لي ولا أضُرَّكَ فدَعَتْ فَأُطْلِقَ . فدَعَا بعضَ حَجَبَتِهِ فَقَالَ : إِنَّكَ لم تَأْتيني بِإِنْسَانٍ ، إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ ، فَأَخْدَمَهَا هاجر . فأتته وهو قائمٌ يصلي فأَوْمَأَ بيدهِ مَهِيمٌ . قالت : ردَّ الله كيدَ الكافر أو الفاجر في نحرِهِ وأَخْدَمَ هاجرَ .

قال أبو هريرة : « تلك أمُّكم يابني ماءِ السَّماءِ »^(٢١) .

أخدمها هاجر : أي وهبها لها لتخدمها .

مهم : معناها ما الخبر .

قال أبو هريرة تلك أمكم يابني ماء السماء : كأنه خاطب بذلك العرب لكثرة ملازمتهم للفلوات التي بها مواقع القطر لأجل رعي دوابهم ، ففيه تمسك لمن زعم أن العرب كلهم ولد إسماعيل . وقيل أراد بماء السماء زمزم لأن الله أنبعها لهاجر فعاش ولدها بها فصاروا كأنهم أولادها .

(٢١) — رواه البخاري في صحيحه ، فتح الباري ٧/٢٠٠ . الحلبي ، وأخرجه مسلم في الفضائل مرفوعاً ،

وأخرجه أحمد والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

قال ابن حبان في صحيحه : كل من كان ولد إسماعيل يقال له ماء السماء لأن إسماعيل ولد هاجر وقد ربي بماء زمزم وهي من ماء السماء^(٢٢).

الحديث الثاني : حديث الشفاعة في فصل القضاء يوم القيامة حديث طويل يتضمن أن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحداً بعد واحد يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم ، وفيه أنهم يأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم ، أنت نبي الله وخليته من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى مانحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات — فذكرهن أبو حيان في الحديث — نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى .. إلى آخر الحديث^(٢٣).

ونوجز موقف أهل السنة والجماعة في البنود التالية :

١ — ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ .

معناه : إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا !! .

وقوم إبراهيم يعلمون جيداً أنه يؤمن ويعتقد بأن أصنامهم لا تنطق ولا تسمع ولا تبصر ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم :

(٢٢) — فتح الباري ، الحاشية لابن حجر ٧/٢٠٣ .

(٢٣) — أخرجه البخاري في صحيحه من عدة طرق في أبواب متعددة : أخرجه في تفسير سورة البقرة عن أنس وفي تفسير سورة بني إسرائيل عن أبي هريرة — وهذا لفظه ٨/٣٩٥ من فتح الباري المطبعة السلفية — ، وفي كتاب الرقاق عن أنس ، وفي التوحيد عن أنس من طريقين . وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة . ورواه أحمد عن أنس من طريقين ، وعن ابن عباس من طريقين ، أخرجه ابن خزيمة عن أنس . وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود ، والطبراني من حديث عبادة بن الصامت ، وأخرجه ابن أبي شيبة من حديث سلمان الفارسي ، وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة . (عن هامش قصص الأنبياء) .

﴿ يَا بَنِيَّ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ .

وقوله :

﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ .

وقوله في آيات الأنبياء على لسان قوم إبراهيم عندما طلب منهم أن يسألوا أصنامهم :

﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ .

وإذن : فلقد فهم القوم من رد إبراهيم أنه هو الذي كسر الأصنام ، لأنه أحالهم على حجارة مبعثرة محطمة لا تنطق وإذا بطل الشرط بطل المشروط .

٢ — يجوز في الحوار أن يثبت المناظر قول خصمه كما هو ، ثم يكر عليه بالحجة والدليل ، وهذا الذي فعله إبراهيم عليه السلام ، فعندما اعترف قومه بأن آلهتهم لا تنطق أجابهم :

﴿ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ .

وأوقعهم إبراهيم عليه السلام بحيرة لامثيل لها ، وشعروا أمامه بضعف وهم الكثرة ، وهزيمة وهم أصحاب السلطة والجبروت .. وقد وصف الله حرجهم في قوله تعالى :

﴿ فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ، ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ .

أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته ، المتفطن لصحة حجة خصمه ﴿ فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي بعبادة من لا ينطق ولا يسمع ولا يرى ، ﴿ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ خجلاً من جهلهم أو إصراراً على باطلهم .

٣ — في قول إبراهيم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ تورية : يعني أنه قصد بعبارة مقصوداً صحيحاً ليس فيه كذب بالنسبة إليه ، وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ بالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب .. وكذلك الأمر في قوله :

﴿إني سقيم﴾ فهو سقيم من عبادة قومه للأصنام ، ومن غير شك فإن الداعية المؤمن يحزن ويمرض إذا رأى قومه في الجهالة والشرك يتيهون .

وفي قوله عن سارة : إنها أخته قصد أخته في الإسلام ، والدليل على ذلك قول الرسول ﷺ أن إبراهيم قال لسارة :

« ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيك ، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني » .

وإذن : فإن الذي قصده إبراهيم أخوة العقيدة والدين كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أَخَوَةٌ ﴾ ، ولم يقصد أخوة النسب ، وهذا من المعارض المشروعة كما قال ﷺ :

« إن في معارضض الكلام مندوحة عن الكذب » (٢٤) .

وقال الجوهري عن المعارض : هو خلاف التصريح ، وهو التورية بالشيء عن الشيء . وقال الراغب : التعريض كلام له وجهان في صدق وكذب أو باطن وظاهر (٢٥) .

ويقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في تعليق له على الحديث الذي رواه أبو هريرة عن قصة سارة مع الجبار :

« وفي الحديث مشروعية أخوة الإسلام ، وإباحة المعارض » (٢٦) .

٤ — وما يجدر ذكره أن الكذب جائز في بعض الحالات . قال الإمام النووي رحمه الله :

« إن الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير

(٢٤) — أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن عمران بن حصين ، وفي رواية أخرى للبخاري في الأدب المفرد من

طريق أبي عثمان المهدي عن عمر قال : أما في المعارض ما يكفي المسلم من الكذب ، وأخرجه الطبري

في التهذيب والطبراني في الكبير ، ورجاله ثقات عن فتح الباري : ٢١٦/١٣ .

(٢٥) — المصدر السابق : ٢١٦/١٣ .

(٢٦) — فتح الباري : ٢٠٤/٧ .

الْكَذِبُ يَحْرُمُ الْكَذِبُ فِيهِ ، وَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ تَحْصِيلُهُ إِلَّا بِالْكَذِبِ جَازَ الْكَذِبُ .

ثم إذا كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً ، وإن كان واجباً كان الكذب واجباً : فإذا اختفى مسلمٌ من ظالمٍ يريدُ قتله أو أخذَ ماله وأخفى ماله وسُئِلَ إنسانٌ عنه وَجَبَ الكذبُ بإخفائه ، وكذا لو كانَ عندهُ ودِعةٌ وأرادَ ظالمٌ أخذَها وَجَبَ الكذبُ بإخفائها .

والأحوط في هذا كله أن يُورَى .

ومعنى التورية أن يقصدَ بعبارة مقصوداً صحيحاً ليس هو كاذباً بالنسبة إليه ، وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ بالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب ، ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب فليس بحرام في هذا الحال .

واستدل العلماءُ بجواز الكذب في هذا الحال بحديث أمِّ كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ليس الكذابُ الذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا » .

متفق عليه .

زاد مسلم في رواية :

« قالت أم كلثوم : ولم أسمعهُ يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث : تَغْنِي الحربَ ، والإصلاحَ بين الناسِ ، وحديثَ الرجلِ امرأته ، وحديثَ المرأةِ زوجها » (٢٧) .

وقال الحافظ في الفتح في تعليق له على هذا الحديث :

« واتفقوا على أن المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقاً عليه أو عليها أو أخذ ماله أو لها . وكذا في الحرب في غير التأمين ، واتفقوا على جواز الكذب عند الاضطرار كما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مخف عنده فله أن ينفي كونه عنده ويحلف على ذلك ولا يأثم ، والله أعلم » (٢٨) هـ .

(٢٧) — رياض الصالحين ، للإمام النووي ، بيان ما يجوز من الكذب ص ٥٥٠ مكتب إسلامي .

(٢٨) — فتح الباري ٦/٢٢٨ مطبعة الحلبي .

أما الكذبات الثلاث التي صدرت عن إبراهيم عليه السلام ، فلقد قال خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ عنها في الحديث الذي رواه أبو هريرة :
« ... ثنتين منهن في ذات الله عز وجل ، قوله — إني سقيم — وقوله — بل فعله كبيرهم هذا — » .

يخبرنا ﷺ في هذا الحديث !! أن ثنتين منهن كانتا في ذات الله تماماً .. أما الثالثة : قوله عن سارة إنها أخته فهي في ذات الله وإن كانت تضمنت حظاً لنفسه ونفعاً له .. لكنها مشروعة وجائزة وفي ذات الله يدلنا على ذلك حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ قال : « قال إبراهيم لسارة : هذه أختي ، وذلك في ذات الله عز وجل » (٢٩) .

قال ابن حجر العسقلاني :

« وقد وقع في رواية هشام بن حسان المذكورة أن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك في ذات الله .

وفي حديث ابن عباس عند أحمد [والله إن جادل بهن إلا عن دين الله] .

وذكر المنذري في حاشية السنن عن بعض أهل الكتاب أنه كان من رأي الجبار المذكور أن من كانت متزوجة لا يقرها حتى يقتل زوجها فلذلك قال إبراهيم هي أختي لأنه إن كان عادلاً خطبها منه ثم يرجو مدافعتها عنها . وإن كان ظالماً خلص من القتل وليس هذا ببعيد مما قرره أولاً » (٣٠) اهـ .

تعقيب : مع أن كذبات إبراهيم عليه السلام الثلاث كانت مشروعة وجائزة وفي ذات الله تعالى ، لكنها أثرت في الرتبة ، وخفضت عن محمد ﷺ المنزلة ، واستحيا منها قائلها ، على ماورد في حديث الشفاعة ، فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالاً لله .

(٢٩) — أخرجه البخاري في صحيحه باب إذا قال لامرأته وهو مكره : هذه أختي ، فلا شيء عليه .

(٣٠) — فتح الباري ٧/٢٠١ الحلبي ، ورواية هشام بن حسان أخرجهما النسائي والبيهقي وابن حبان .

وقول إبراهيم عن سارة انها أخته ليس كقوله :

﴿ إني سقيم ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وإن كان دفع بها مكروهاً حيث كان لإبراهيم عليه السلام فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله .

فليتحرر الدعاة إلى الله الصدق في أقوالهم وأعمالهم وليحذروا فتنة لاتصين الذين ظلموا خاصة .. وإنه لما يكلم الفؤاد أن تنتشر الأراجيف ، وتكثر الأكاذيب ، ويلصق كل قوم بغيرهم مالم يس فيهم انتصاراً لمكاسب دنيوية لاتدفع عنهم ضرراً ولا تجلب لهم نفعاً ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه .

وإنه لما يدمي القلب أن يتوسع بعض الدعاة في المعارض تحت شعار مصلحة الدعوة ، وسلامة الدعوة !! ومصلحة الدعوة تقتضي الانقياد الكامل لأوامر الله ، واقتفاء أثر أنبيائه ورسله ، وسلامة الدعوة من أذى يصيبهم في الدنيا لايساوي شيئاً أمام ماتوعده الله به الكاذبين يوم يعرض الظالم على يديه ويقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً .

أين نحن من إبراهيم عليه السلام الذي وصفه الله بقوله :

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ .

وقوله :

﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ .

ومع ذلك كان يخشى كذبات ثلاث كانت في سبيل الله وهو مأجور عليها !؟ .

فليحاسب كل منا نفسه ، وليتق ربه ، وليعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

هـ — ولقد أطلت بعض الشيء في تفسير قوله تعالى : ﴿ قال : بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألهم إن كانوا ينطقون ﴾ ، وفي بيان ما قاله أهل السنة والجماعة عن كذبات إبراهيم الثلاث بغية الرد على صنفين من الناس :

آ — المعتزلة ومن نحا نحوهم الذين زعموا أن الأحاديث التي ترمي إلى إسناد الكذب إلى إبراهيم وإن كانت صحيحة الإسناد لا يمكن أن تكون برهاناً على إثبات أمر

اعتقادي لأنها أحاديث آحاد .

ومن الكُتَّاب المحدثين الذين أسرهم مثل هذه الأفكار الباطلة الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه « قصص الأنبياء »^(٣١)، لقد سود صفحات كثيرة حاول من خلالها رد الأحاديث النبوية التي تحدثت عن كذبات إبراهيم لأنها أحاديث آحاد مع أنها متواترة من حيث المعنى ، لأنها وردت في أصح كتاب بعد القرآن الكريم — صحيح البخاري — .

ب — زعم بعض أهل الغلو أن إبراهيم عليه السلام ارتد عن الإسلام لأنه كذب !! . وقد شاعت أقوال دعاة هذه الفرقة المنحرفة بين شباب جهلة ، والجهل مرتع خصب لكل انحراف .. ومع ذلك فأفكار وأقوال دعاة هذه الفرقة تنتقل بالمشافهة ، وقد عجزوا والحمد لله عن القدرة على صياغتها في كتب ورسائل ، ومثل هذه الفرق المنحرفة لا يكتب لها النجاح والاستمرار .

وإذا أعرضنا عن أقوال المعتزلة وغيرهم من أهل الزيغ والضلالة ، ونظرنا في مراجع بعض أهل السنة والجماعة وجدنا أقوالاً في هذه المسألة تحتاج إلى إعادة نظر . قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله :

« والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر . فلا داعي لتسمية هذه كذبة من إبراهيم عليه السلام ، والبحث عن تعليلها بشتى العلل التي اختلف عليها المفسرون »^(٣٢) اهـ .

صحيح أن التهكم واضح في جواب إبراهيم ، ولكن نخاتم الأنبياء ﷺ سماه كذبة ، وكذلك الخليل نفسه سماها كذبة كما جاء في حديث الشفاعة الذي أخرجه

(٣١) — كتاب « قصص الأنبياء » للنجار ، فيه انحرافات كثيرة من أهمها : رد أحاديث الآحاد في أمور العقيدة ، وتقديم العقل على النقل ، واعتماده الجرم على مصادر أهل الكتاب . وقد رد عليه علماء ثقات وبينوا ما في الكتاب من انحرافات .

(٣٢) — في ظلال القرآن : ٤٠/٥ جزء ١٧ .

البخاري في صحيحه ، وكان على سيد رحمه الله أن ينقل الأحاديث الصحيحة في هذه المسألة ومن خلال هذه الأحاديث كان عليه أن يبين جواز الكذب في بعض الحالات ، والذي نراه أن في جوابه إيجاز مخل ، وهذا منه زلة قلم ، وإن كان كلامه ليس فيه غلو أو اعتزال والحمد لله .



سادساً — إلقاء إبراهيم في النار

اعترف قوم إبراهيم في ذلك اليوم العصيب بأنهم ظالمون ، لأنهم يعبدون آلهة لاتنطق ولا تسمع ، وهذه أول مرة يفكرون فيها بعجز أصنامهم وضعفها ، غير أن صحوة ضمائرهم لم تستمر إلا لحظات ، ثم انتصر صوت الشيطان في نفوسهم فنكسوا على رؤوسهم ، وأصروا على كفرهم ، وأصدروا قرارهم الجائر . قال تعالى :

— ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

وهذا هو سلاح أهل الباطل الذي يلجأون إليه في مواجهة أنبياء الله ورسله وحملة الإسلام في كل عصر ومصر .

أجمع قوم إبراهيم على قتل نبيهم انتصاراً لآلهتهم ، واختاروا له أفظع قتلة ، وهي الإحراق في النار ، وليس في أي نار ، بل بنوا بنياناً شاهقاً ، ووضعوا فيه كميات كبيرة من الحطب شارك القوم كلهم في جمعها . قال تعالى :

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بَنِياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ (٣٣) .

وفي رواية لابن أبي حاتم من طريق السدي أن المرأة تمرض فتقول : لعن عافاني الله لأجمعن لإبراهيم حطباً (٣٤) .

وقال ابن اسحاق : وجمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، فاشتعلت النار واشتدت ، حتى أن كان الطائر يمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه

(٣٣) — فتح الباري ٧/٢٠٦ مطبعة الحلبي .

(٣٤) — سورة الصافات ، الآية : ٩٧ . تفسير ابن كثير .

وفي تلك اللحظات كان إيمان إبراهيم بربه أشد رسوخاً من الجبال الرواسي، وكان ثقته بنصر الله وتأيده أقوى من الأرض ومن عليها، ولهذا كان غير مكترث لجماهيرهم المحتشدة، ونيرانهم الملتببة، وكلماتهم النابية.

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمُ الْوَكِيلُ﴾.

وفي رواية أخرى لابن عباس قال: «كان آخر قول إبراهيم حين ألقى في النار [حسبي الله ونعم الوكيل]».

قال الحافظ في الفتح:

«وفي حديثي ابن عباس إشارة إلى ما أخرجه ابن اسحاق مطولاً في هذه القصة» (٣٦).

— ﴿قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

﴿كوني برداً﴾: يدل على سلامته من حرها. وقوله: ﴿وسلاماً﴾: يدل على سلامته من شر بردها الذي انقلبت الحرارة إليه، ولا يصح لمسلم أن يسأل لماذا لم تحرق النار إبراهيم، لأن الذي صنعها وجعل فيها خاصية الإحراق هو الذي أمرها أن تكون برداً وسلاماً:

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (٣٧).

— ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾.

أرادوا إحراقه بالنار نصراً منهم لآلهتهم فجعلهم الله ﴿الأخسرين﴾ لأنهم خسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين. وقال تعالى في سورة الصافات:

(٣٥) — تفسير القرطبي ١١/٣٠٤.

(٣٦) — أخرجهما البخاري في صحيحه. فتح الباري ٨/٢٢٩ مكتبة الرياض الحديثة.

(٣٧) — سورة يس، الآية: ٨٢.

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ .

ومن سنن الله أن ينصر رسله إذا بلغت الشدة بهم منتهاها ، ويخذل أعداءه المستكبرين . قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٨) .

ونخرج خليل الرحمن من النار سليماً معافى ، وقومه يشاهدونه ولا يتعظون ، لأن الله قد كتب عليهم الهلاك بكفرهم وعنادهم ، ولهذا لم تنفع فيهم الحجج والأدلة ، ولا الخوارق والمعجزات .



(٣٨) — سورة يوسف ، الآية : ١١٠ .

سابعاً — هجرة إبراهيم

أيقن قوم إبراهيم أنهم عاجزون عن قتل خليل الرحمن أو زحزحته عن أفكاره التي يدعو لها ، ووقف طاغوتهم — الثمرد — حائراً لا يدري ماذا يفعل بعد أن عجزت نيرانهم المتأججة عن التهام ظفر من أظافر إبراهيم أو حرق قطعة صغيرة من ملابسه .
وأيقن إبراهيم عليه السلام أن جذور الشرك عميقة وعميقة جداً في قلوب قومه وعقولهم ، لقد أقام عليهم الحجج الدامغة ، ورأوا معجزات تبهر العقول فما زادهم ذلك كله إلا إصراراً على الباطل وإعراضاً عن الحق ، ولم يعد ينفع فيهم النصيح أو الوعظ .

وإذن فلا فائدة من بقاء إبراهيم في أرض جرداء قاحلة لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً ، وبين قوم يستعجلون عذاب الله ويזהدون برسله وأنبيائه ، وجاء أمر الله في هجرة إبراهيم ومن معه إلى الأرض المباركة . قال تعالى :

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ، وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (٣٩) .

وقال :

﴿ فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤٠) .

(٣٩) — سورة الأنبياء ، الآيات : ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٧٣ .

(٤٠) — سورة العنكبوت ، الآية : ٢٦ .

وقال :

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ،
وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهِدِينَ ﴾ (٤١).

وبهذا تتهاوى أقوال من زعموا أنه غادر بابل بعد أن أجذبت أرضها وعمّها
القحط ، ولا يغير من الحقيقة شيئاً أن أباه آزر خرج معه ، فربما كان قد أصبح
شيخاً مُسنّاً ليس له من يعيله ، وحرص على مصاحبة ابنه مع إصراره على عقيدة آبائه
وأجداده ، كما أنه لا يغير من الحقيقة شيئاً أن إبراهيم عندما هاجر في سبيل الله وبأمره
كان القحط قد عمّ أرض بابل .

هاجر الخليل عليه السلام ، كما هاجر نوح قبله ، وكما هاجر محمد ﷺ بعده .

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن ورقة بن نوفل قال
لرسول الله ﷺ :

« هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يَأْلِيَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ
يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَوْمُخْرِجِي هُم ؟ ! » .

قال نعم ، لم يَأْتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ
أُنْصُرُكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا » (٤٢).

تخلّى إبراهيم عليه السلام عن وطنه وعن رفاق صباه ، كما تخلّى عن أقرب الناس
إليه من أهله وقومه ، وفر بدينه في أرض الله الواسعة ، وليس معه من المسلمين إلا ابن
أخيه وزوجه سارة !! .

وهؤلاء الثلاثة — إبراهيم ولوط وسارة — هم جماعة المسلمين ، وليس على وجه

(٤١) — سورة الصافات ، الآيات : ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ .

(٤٢) — فتح الباري ، ٢٨/١ .

الناموس : صاحب السر .

جذعاً : شاباً .

الأرض من يذكر الله غيرهم ، وفي هذا عبرة لمن يعول على الكثرة ، ويهمل دور التربية .

وألقي الركب المؤمن عصا التسيار في « حرّان » من أعمال بلاد الشام ، وكان أهلها يعبدون الكواكب من دون الله جلّت أسماؤه وصفاته ، فدعاهم إبراهيم إلى توحيد الله وعدم الإشراك به فلم يستجيبوا له .. وبعد أن مكث في حرّان ماشاء الله أن يمكث ارتحل منها إلى أرض « التيمن » — أي أرض بيت المقدس وما والاها — ثم ارتحل من أرض التيمن إلى مصر ، وفيها جرت قصة سارة مع ملكها ، وسبق أن ذكرنا القصة عند حديثنا عن كذبات إبراهيم الثلاث في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والقصة محنة من محن إبراهيم المتتالية ، وأشد الناس ابتلاء الأنبياء ، وأشد الأنبياء ابتلاء أولو العزم من الرسل ، وأية محنة أكبر من أن يرى الداعية زوجه وقد سلبت منه ، ويُدخلها الطاغوت إلى قصره ، ثم ينام وسارة في غرفة واحدة ، ويحاول — قبحه الله — هتك عرضها والاعتداء على شرفها ، وهي لا تملك قوة تدافع بها عن نفسها .. وبيت زوجها خليل الرحمن لائذا بكشف الله سبحانه وتعالى يصلي ويدعو ربه أن يرد إليه زوجه وأن يحفظها من فرعون وكيده .

ولكن الله جلّت قدرته الذي نجى إبراهيم من النار حفظه من وصمة العار ، وعادت إليه سارة عزيزة شريفة ، ومكث إبراهيم في مصر ماشاء الله أن يمكث ثم غادرها راجعاً إلى أرض « التيمن » ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم هاجر القبطية التي أخدمها فرعون مصر لسارة بعد أن رأى منها ما رأى .

ونزح لوط من أرض « التيمن » إلى الغور بأمر من إبراهيم ، وبقيت الأرض الواسعة الخصبة ، والأنعام التي لا تحصى ، والمال ، والعبيد ، لخليل الرحمن وحده ، ورزقه الله ذرية صالحة ، فما من نبي بعث من بعد إبراهيم إلا كان من ذريته ، وما من كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده إلا نزل على أحد نسله وعقبه .

ونعم الله التي أنعمها على إبراهيم تذكرنا بهجرة المسلمين إلى الحبشة وما لاقوه

عند النجاشي من إكرام وحرية وأمن ، مما دعا الصحابي عبد الله بن الحارث بن قيس — أحد المهاجرين — إلى القول في رسالة بعث بها إلى إخوانه المقيمين في مكة :

يَا رَاكِبَا بَلَّغْنِي عَنِّي مَغْلَغَلَةً مَنْ كَانَ يَرْجُو بِلَاغَ اللَّهِ وَالْدِّينِ
كُلَّ أَمْرٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مُضْطَهَدٍ يَبْطُنُ مَكَّةَ مَقْهُورٍ وَمَفْتُونٍ
أَنَا وَجَدْنَا بِلَادَ اللَّهِ وَاسِعَةً تُنْجِي مِنَ الذُّلِّ وَالْمَحْزَاةِ وَالْهُونِ
فَلَا تُقِيمُوا عَلَى ذُلِّ الْحَيَاةِ وَخِزْرِ فِي الْمَمَاتِ وَعَيْبِ غَيْرِ مَأْمُونٍ^(٤٣)

مأشد حاجة الدعاة الغرباء اليوم إلى فهم معاني هذه الآيات ، وإلى التأسّي بإبراهيم عليه السلام في هجرته وغربته عن وطنه وأهله ، لقد كانت الدعوة إلى الله في غربته أهم قضية عنده ، فلم يتعلق قلبه بحب المال والأنعام التي من الله بها عليه ، ولم يشغل نفسه بكتابة الرسائل والقصائد التي تعبر عن حبه لوطنه وحنينه إليه .

ويجب أن تبقى العقيدة عند الدعاة الغرباء عن أوطانهم أهم من التراب والطين ، وأعلى من الأهل والعشيرة والقوم ، وأن تكون ثقتهم بالله أقوى من أن ترعزعها الأهواء والمحن ، وما يخلق بوجوههم هنا قد يفتح هناك . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاقِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(٤٤).

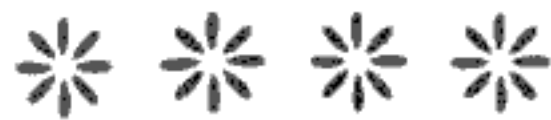
(٤٣) — سيوف ابن هشام : ٣٣٠/١ . مطبعة ومكتبة البابي الحلبي .

(٤٤) — سورة النساء ، الآية : ١٠٠ .

المراغم : مشتق من الرغام ، ورغِمَ أنف فلان أي لصق بالتراب .

وقيل المراغم : المذهب والمتحول ، عن تفسير القرطبي ٣٤٧/٦ .

أما الثمرود وقومه المشركون فلقد أهلكهم الله جلَّت قدرته — سواء كان هلاكهم عن طريق البعوض الذي أكل لحومهم ودماءهم وتركهم عظاماً بادية كما روى ابن كثير عن زيد بن أسلم ، أم كان عن طريق آخر — وجعلهم عبرة لمن يعتبر ، ونحن لانعرف لهم نسلأ أو فضلاً ، وإنما كل الذي نعرفه عنهم أنهم أعلام في حزب الشيطان ، وأئمة ضلالة ، ورموز شر وغواية والعياذ بالله .



المبحث الرابع : دروس وعبر

- الدرس الأول : طغاة عصرنا أكثر ظلماً من طغاة قوم إبراهيم .
- الدرس الثاني : كان إبراهيم لا يخشى إلا الله .
- الدرس الثالث : المسلمون كالجسد الواحد .
- الدرس الرابع : مثالان من أصنام وأوثان هذا العصر .
- الدرس الخامس : عدم موالاة المشركين .
- الدرس السادس : قوة إبراهيم وجرأته .
- الدرس السابع : كانت الدعوة إلى الله كل شيء في حياة إبراهيم .

الدرس الأول : طغاة عصرنا أكثر ظلماً من طغاة قوم إبراهيم

حاكم الطغاة إبراهيم عليه السلام بشكل علني ، وسمحوا له أن يقول كل ما يريد دون قسر أو إكراه ، فلم يُضْرَبْ أو يقاطع ، بل ولم تسجل أقواله على شريط [كاسيت] ، بعد التعذيب والتهديد والتجويع ، ثم يذاع منه ما يخدم مصلحة السلطة .

وفوق ذلك كله كان الشعب — بشيوخه ونسائه وشبابه وأطفاله — يشهد المحاكمة ، ويصغي لأقوال محطم الأصنام ، وردود السلطة عليه بشكل مباشر وعلى الهواء — كما يقولون — ، ودون تحريف أو تلفيق .

وأما خليل الرحمن فقد اتخذ من المحاكمة مجالاً لعرض آرائه ومعتقداته ، ولم يهتم أو يبالي بما سيفعله الطغاة به . لقد اتهمهم بالكذب ، ورماهم بالخيل ، وسخر من آهتهم ، ولم يسكته المحققون والقضاة لأنه تجاوز قضية الدفاع عن نفسه .. ولهذا فإننا نقول : إن طغاة قوم إبراهيم أقل خبثاً وحقداً على الدعاة إلى الله من طغاة عصرنا الذين لا يسمحون بشيء يسير من الحرية التي كان يسمح بها سلفهم رغم أن الأهداف والغايات واحدة عند الجميع في القديم والحديث :

— ففي مصر تم اعتقال داعية الإسلام الأستاذ سيد قطب رحمه الله ، وقال أعداؤه كل ما يريدون عنه عبر أجهزة إعلامهم ، فزعموا أنه إرهابي مجرم ، وعميل للإستعمار ، وما إلى ذلك من أباطيل وادعاءات كاذبة ، ولم يسمحوا له أن يدافع عن نفسه ، أو أن يصدر بياناً يبين فيه وجهة نظره ، وتطوع المحامون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي للدفاع عن سيد رحمه الله ، فلم تأذن سلطات عبد الناصر لهم بدخول

الأراضي المصرية ، فكيف الإطّلاع على ملف التحقيق أو مقابلة المتهم في سجنه ، إن المستحيل حقاً أهون من ذلك . وأخيراً أعدم المجرمون مفكراً إسلامياً كبيراً وداعية فذاً ، ولم يسمع الناس إلا رأي السلطة في هذه القضية .

— وفي بغداد اعتقلت سلطات حزب البعث — العقلي — داعية الإسلام الشيخ عبد العزيز البدرى رحمه الله ، من بينه وهو آمن بين زوجته وأولاده .. اختطفوه من بينهم دون أن يرتكب ذنباً يغضب وجه الله أو يقترب جريمة .. وبعد أيام أخبروا أهله أنه مات — بالسكتة القلبية — ، ونقلوه إلى مثواه الأخير دون أن يسمحوا لطلابه وأهله ومحبيه أن يشيعوه ، غير أن أخاه تمكن من خرق حصار رجال الأمن المفروض حول الجثة ، ورفع الغطاء عن وجه القتل ، وبالهول مارأى من آثار التعذيب والتشويه .. وهكذا قتل مجرمو حزب البعث شيخاً داعية من أبرز علماء العراق ، ولم يعلم الناس لماذا اعتقل وقتل ، بل ولم تقل السلطة وجهة نظرها من شدة استخفافها بأرواح الناس .

— أما بلاد الشام الجريحة . ففي سجن تدمر — وخلال بضع ساعات — أباد طغاة البعث النصيري مئات من الشباب الدعاة — بين طبيب ومهندس ومدرس وخطيب واعظ — ودفنهم في قبور جماعية ، وكان بعضهم ما يزال على قيد الحياة ، وفي مدينة حماة المسلمة دمر المجرمون معظم أحياء البلدة ، وكان ضحايا هذه المجزرة الرهيبة مالا يقل عن ثلاثين ألف قتيل . وقد هتك الأوغادُ الأعراضَ وقتلوا الأطفال والشيوخ ، ودمروا معظم مساجد المدينة .

وجرائم البعث النصيري ليست قاصرة على تدمير وحماة ، لقد حولوا سورية كلها إلى سجن ، ومن الأمور التي لم يعد يستغربها أهل بلاد الشام اعتقال وإعدام من شاءت السلطة ، ولا يحق لأحد أن يسأل عن ابنه أو أخيه هل مات أم ما يزال على قيد الحياة .

وهذا قليل من كثير من الأحداث التي تجري في عالمنا الإسلامي ، لافرق في ذلك بين طاغوت عسكري وآخر ديمقراطي ، أو بين طاغوت تقدمي وآخر رجعي .

وإن أحسن وصف لعقلية وأفكار الطغاة المعاصرين ماقاله أحد شعراء الدعوة الإسلامية يترجم ما كان يقوله حقاً العقيد حمزة البسيوني مدير السجن الحرلي في القاهرة في محاضراته التي كان يلقيها على العلماء الدعاة في السجن:

إني أنا القانون أعلى سلطة من ذا يحاسب سلطة القانون
من منكم أحييته فبرحمتي وإذا أمتُ فذاك ملك يميني

فما بال عدد كبير من الكُتّاب الوعاظ يسودون الصفحات في كتبهم، ويقضون الساعات الطوال في برامجهم في الإذاعة والتلفاز يتحدثون فيها عن طغيان قوم إبراهيم، ولا يتحدثون كلمة واحدة عن طغاة عصرنا، اللهم إلا إذا كان حديثهم جزءاً من حملة إعلامية يشنها طاغوت ضد طاغوت آخر؟! .



الدرس الثاني : كان إبراهيم لا يخشى إلا الله

بعض الذين يقرأون سيرة إبراهيم عليه السلام تتعلق أذهانهم بانتصاراته المرموقة ، وتأيد الله له والوقوف معه ضد أعدائه في جميع محنه وابتلاءاته ، وينسى هؤلاء أو يتناسون صعوبة الطريق الذي سلكه خليل الرحمن ، وغرته في قومه ، وشدة عداوة الناس له ، ومصائبه المتلاحقة التي عاناها قبل أن يكرمه الله بالنصر .

فإبراهيم عليه السلام وهو يحطم الأصنام ما كان يعلم أبداً أن قومه سيلقوه في النار ، وأن الله سينقذه منها ، وكل الذي كان يعلمه أن الطغاة سينتقمون منه ، وربما أقدموا على قتله .. ومع ذلك هان عليه الموت في سبيل الله ، كما هان في عينيه قوة الطاغوت وبطشه عندما تذكر قوة الله ، وزهد في مغريات الدنيا وشهواتها وآمن بأنها لاتساوي عند الله جناح بعوضة .

وعندما هدده قومه وتوعده أجابهم بكل قوة وتصميم . قال تعالى على لسان إبراهيم :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا خَافُونَ أَنتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .

كيف أخاف من أصنامكم وأنا أعلم أنها حجارة صماء لاتضر ولا تنفع ؟!

كيف أخاف من قادتكم وطواغيتكم ، وهم ضعاف وإن ملكوا المال والجيش .. كيف أخاف منهم وأنا أعلم أنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهم أحق بالخوف مني لأنهم عبدوا غير الله جلت قدرته وجحدوا آلاءه ونعمه ، وهم يرون آياته في كل شيء ؟!

أنتم أحق بالخوف مني لأن شبح الموت يطاردكم ، ولهب جهنم ينتظركم ، ولن تغني عنكم في ذلك اليوم الموعود أموالكم وما تملكون شيئاً يوم تعرضون على ربكم حفاة عراة غرلاً .

ثم ينتقل خليل الرحمن من التخصيص إلى التعميم في حوار مع قومه :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .

الذين آمنوا بالله ، وأذعنوا له ، واطمأنت قلوبهم لقضائه وقدره ، ولم يخلطوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن ولو كانوا في سجون الظالمين ومعتقلاتهم لأنهم فضلوا واختاروا العذاب على الفتن والألم على الحياة ، واشتاقوا للقاء الله تعالى وآثروا جواره على كل مغريات الدنيا .

أما الكافرون فحياتهم جحيم لا يطاق ، ورعب لا يحتمل . قال تعالى :

﴿ سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشَئِشٌ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ ﴾ (٤٥) .

ومن مظاهر هذا الرعب الذي ألقاه الله في قلوب الذين أشركوا من الطواغيت أن كلاً منهم يتمنى أن يسير في الشارع كغيره من الناس بل كأقل الناس ، غير أنه لايجرؤ أن يسير ماشياً على قدميه ، وتراه يخرج في سيارة ومعه الحرس ثم لايشعر بالأمن ، بل ينتظر مصيره المحتوم في كل لحظة ، ويشك بأقرب الناس إليه ولو كانوا من خواص أقربائه وبطانته . وإذا مات الطاغوت بدأ عند ربه حياة جديدة كلها عذاب وشقاء ، أما المؤمنون فيدعون إلى الله ويجاهدون في سبيله وكل ما يصيبهم خير وسعادة . قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا فِتْرَبُّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ (٤٦) .

(٤٥) — سورة آل عمران ، الآية : ١٥١ .

(٤٦) — سورة براءة ، الآية : ٥٢ .

ولقد كانت هذه المعاني واضحة جليلة في نفوس الصحابة والتابعين وأعلام السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

سأل قائد جيوش الفرس [رسم] ربي بن عامر : ما جاء بكم ١٩ .

فقال ربي : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعواهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله . قالوا : وما موعود الله ؟ ٢٠ . قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي . (٤٧)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

« ما يصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحى فهي معي لا تفارقني ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة وكان يقول : المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه . ولما أدخل ووصل إلى القلعة ، وصار داخل سورها ، نظر إليه وقال :

﴿ فضرِبَ بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ .

وقال ابن القيم : « وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدرأً ، وأقواهم قلباً ، وأسرههم نفساً تلوح نظرة النعيم على وجهه ، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون ، وضائق بنا الأرض ، أتيناها فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله ، فينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمانينة .. » (٤٨) اهـ .

من أجل هذا انتصر إبراهيم عليه السلام ، كما انتصر خاتم الأنبياء ﷺ

(٤٧) — البداية والنهاية : ٣٩/٧ .

(٤٨) — الكلم الطيب لابن القيم [عن الكواكب الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية] .

وأصحابه والتابعون ومن جاء بعدهم من رجال خير القرون ، ولن تهزم أمة يقودها علماء دعاة يعتقدون بأن السجن خلوة والنفي سياحة و الموت شهادة .

وعندما فقدت أمتنا هذه النماذج من الرجال الدعاة سلط الله علينا أعداءنا ، وصرنا هدفاً لشذاذ الآفاق وحثالة الأمم ، وأصبح المسلمون غثاءً كغثاء السيل لا يرهبهم أحد ، ولا يحسب لهم أي حساب .

ومن المؤسف جداً أن كثيراً من الدعاة إذا سمع أحدهم أن السلطة تراقب تحركاته ، اعتراه الخوف ، واشتد قلقه ، وصار يشك بأقرب الناس إليه ، وربما تحول الخوف من السلطة عند بعضهم إلى مرض عقلي مزمن والعياذ بالله ، ولهذا فبعض الذين ينافقون إلى الطاغوت لا ينشدون وظيفة عنده أو مالاً ، وإنما يأملون السلامة منه ومن حرسه وجواسيسه ، وما تزال نفوسهم تضعف من كثرة تردادهم على مجالس السلطان أو مجالس كبار موظفيه حتى يصبحوا أداة من أدوات الطاغوت لا يعصون له أمراً ولا يردون له طلباً ، ومن المفارقات العجيبة أن كلاً من هؤلاء الدعاة قد يتحدثون ساعات وساعات عن تفسير قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٩).

اللهم املأ قلوبنا بالخوف منك ومن نارك وحررها من خوف غيرك يارب العالمين ، وارزقنا اللهم الشهادة في سبيلك وأحسن ختامنا وختام المسلمين ، وحبب اللهم إلينا التآسي بأنبيائك الذين لم يخشوا أحداً غيرك يارب العالمين .



(٤٩) — سورة آل عمران ، الآية : ١٧٥ .

الدرس الثالث : المسلمون كالجسد الواحد

المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر ، ورأس جسد هذه الأمة كان إبراهيم عليه السلام في عصره ، وله المكانة التي تلي الرأس بعد بعثة خاتم الأنبياء ﷺ .

فليس مستغرباً أن يذكر كل مسلم شيئاً من قصة خليل الرحمن وشيخ الأنبياء مع قومه المجرمين الظالمين صباح مساء في كل يوم من سني عمره . ومن مظاهر هذه المشاركة الشعورية الكثيرة نختار قصة « الوزغ » (٥٠) .

عن سعيد بن المسيب ، عن أم شريك رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال :

« كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام » (٥١) .

وفي رواية لأحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال :

« اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم » .

قال : فكانت عائشة تقتلهن .

وفي رواية أخرى لأحمد أن امرأة دخلت على عائشة فإذا ربح منصوب فقالت :

ما هذا الرمح ؟ . فقالت : نقتل به الأوزاغ ، ثم حدثت عن رسول الله ﷺ : « أن

(٥٠) — الوزغات جمع وزغة حيوان صغير يلقح بفيه ، ويبيض ، ويقال لكبارها سأم أبرص .

(٥١) — رواه البخاري في صحيحه ، فتح الباري ٢٠٤/٧ واللفظ له ، ورواه مسلم عن حديث ابن جريج ،

وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عُيينة .

﴿إبراهيم لما ألقى في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه﴾ .

وتفرد به أحد من هذين الوجهين^(٥٢).

سبحانك يارب أي دين عظيم هذا الذي هديتنا إليه ورزقنا اتباعه !؟ .

أية مشاركة وجدانية تلك المشاركة التي أوجدها الإسلام بين أفرادہ !! .

منذ آلاف السنين وكلما رأى المسلمون وزغاً سارعوا إلى قتله لأنه كان ينفخ النار على أبينا إبراهيم عليه السلام، ولأن عدو إبراهيم عدو لكل مسلم .. وسيبقى المسلمون على ذلك حتى يبعث الله الأرض ومن عليها، فلا ود ولا مصلحة مع أعداء الله ولو كانوا حيوانات صغيرة كالأوزاغ .

وقضية الوزغ وغيره يعرفها خاصة المسلمين و عامتهم، فلو رأى فتى صغير في قرية نائية وزغاً لسارع إلى قتله لأنه رأى أهله يقتلونه وسمع منهم أنه كان ينفخ النار على خليل الرحمن عليه السلام .

ومن المحزن حقاً أن المشاركة الشعورية بين أعضاء الجسد الإسلامي الواحد أصابها كثير من الضعف والفتور في زمننا .. فكم يسجن ويعدم أعداء الإسلام من الدعاة إلى الله وإخوانهم في بلدان العالم الإسلامي لا يعرفون عنهم شيئاً، وإن عرفوا

(٥٢) — قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٨٥ ، دار الكتب الحديثة ، تحقيق مصطفى عبد الواحد . قال محقق

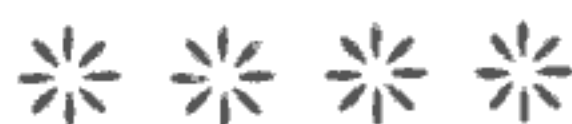
الكتاب عن قصة الوزغ :

« لانستطيع الاطمئنان إلى هذه المرويات مادامت تخالف العقل ، فليس هناك تكليف للحيوان ، وليس الوزغ من الفواسق التي أمرنا الرسول بقتلها ، وإذا صح أنه أمر بقتله فينبغي أن تكون هناك علة أخرى » . اهـ

أي عقل هذا الذي تخالفه أحاديث رسول الله ﷺ التي رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما ، كما رواها أحمد والنسائي وابن ماجه .. وكم ظلم ابن كثير رحمه الله عندما زعم عبد الواحد أنه حقق كتابه البداية والنهاية !؟ .

وتأثروا فيكون تأثيرهم عابراً كسحب الصيف .. ولهذا فأصبحت عمليات إبادة المسلمين ونصب المشانق لهم من الأمور العادية التي لا تستحق اهتماماً ، بل إن مباراة الكرة بين دولة وأخرى تثير اهتمام أجهزة الإعلام العالمية أكثر من تدمير مخيمي صبرا وشاتيلا في لبنان .

إنه لمن المؤلم أن تقوم الدنيا ولا تقعد لمقتل أو سجن يهودي والمسلمون يذبحون في كل بقعة من العالم ، ويلقى جلادوهم كل تأييد ودعم من جميع الدول الكبرى في العالم ، بل ومن الدول التي تحكم شعوباً تدين بالإسلام .



الدرس الرابع : مثالان من أصنام وأوثان هذا العصر

كل من يقرأ سيرة إبراهيم عليه السلام يستغرب أشد الاستغراب سخف قومه ،
وبلادة عقولهم ، وقسوة ضمائرهم ، إذ كيف يُلقون رجلاً عاقلاً حكيماً منهم في النار
لأنه حطم بعض الحجارة والصور التي أسموها آلهة !! .

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه :

لماذا لا يستغرب هؤلاء الناس جميعاً ما يجري في هذا العصر من سخف وظلم
وهمجية .. ولندلك على ذلك بالمثالين التاليين :

المثال الأول : لو أن إنساناً ذهب إلى قصر الحكومة في بلد من البلاد التي تدين
شعوبها بالإسلام ، وأنزل علم ذلك الدولة ومزقه ماذا سيكون مصيره ؟! .

المثال الثاني : لو أن إنساناً حطم تمثالاً من التماثيل التي تعتبره الدولة رمز استقلالها
— كصورة زعيم الحزب الحاكم أو صورة من وصفوه بزعيم الإستقلال — ماذا سيكون
مصير الجاني ؟! .

بما لاشك فيه أن هذا الإنسان سيقتل قبل أن يمزق العلم أو يحطم التمثال لأن
قوات الأمن التي تحرس هذه الأصنام ليل نهار مأمورة بإطلاق النار في مثل هذه
الأحوال .

وإذا سلم هذا الإنسان من القتل فسوف يتم اعتقاله في سجون مظلمة يرعاها
زبانية لاتعرف قلوبهم الشفقة أو الرحمة .. وفي هذه الأوكار التي لايعرف السجين
فيها الليل من النهار ، وفي جو من الإرهاب لامثيل له يبدأ المجرمون التحقيق مع
الجاني ، فإن ثبت أنه عضو في تنظيم قتلوه وقتلوا معه قادة هذا التنظيم ، وإذا تبين لهم

أنه لاصلة للجاني بأحد قتلوه وحده .

وفي كلا الحالتين لن يسمحوا للجاني أن يبين وجهة نظره وما هي الدوافع والأسباب التي دعت به إلى القيام بهذا العمل الذي أقدم عليه .

ومما يجدر ذكره أنه لافرق بين قطعة القماش التي أسموها علماً أو بين تمثال زعيم حزب الدولة وبين أصنام قوم إبراهيم إلا في كون التماثيل الحديثة أفخم لأنها تصنع من مادة البرونز ، وتبنى عليها قباب من الذهب .

ثمة أمر يجعل قوم إبراهيم أقل خبثاً من طواغيت عصرنا ذلك أنهم حاولوا قتل إبراهيم وحده ولم يتعرضوا لجماعته — لوط وسارة — بأذى ، أما السلاطين التقدميون في زمننا فيأخذون الناس بالشبهات ، ويضطشون بجماعة المتهم وأقربائه ولو كانوا أبرياء .

وإذن لماذا يكثر بعض الذين ابتليت بهم الدعوة الإسلامية من الحديث عن أصنام قوم إبراهيم ونوح وغيرهما من أنبياء الله ، ويسكتون عن الأصنام الحديثة ، لا بل قد يقف مفتي السلطان مع سيده لتحية العلم وتعظيمه والموسيقى تعزف ، ولا يظهر على وجه سماحة الشيخ !! إلا الرضى والحبور .



الدرس الخامس : عدم موالاة المشركين

مما نشاهده أن بعض الناس يقيمون أوثق العلاقات مع السفهاء والملاحدة من أقربائهم ورؤسائهم ، فيترددون على مجالسهم ، ويحضرون ندواتهم واحتفالاتهم العامة ، وقد يسخر هؤلاء الملاحدة من الدعاة وأصحابنا جالسون لا يظهر على وجوههم الامتناع ولا يغضبون لله .

وربما كتبوا في الصحف يمدحون بعض أعمال الطغاة ، وإذا سألتهم عن الأسباب التي تدعوهم لاتخاذ مثل هذه المواقف قالوا :

لقد علمنا الإسلام أن نقول للمحسن أحسنت ، وللمسيء لقا . خالفت الصواب ، ولنا أسوة حسنة في إبراهيم عليه السلام . لقد كان رفيق القلب ، كثير الحلم ، واسع الصدر ، لين الجانب مع والده وأهله ، وقد وصفه الله في هذه الصفات بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (٥٣).

ودعا لأعدائه في قوله تعالى على لسانه :

﴿ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥٤).

ولا أدري لماذا يستدل هؤلاء بأسلوب إبراهيم عند بداية الدعوة وينسون أو يتناسون — وهو الأرجح — موقف إبراهيم من أبيه وقومه بعد أن علم منهم إصرارهم على الشرك :

(٥٣) — سورة هود ، الآية : ٧٥ .

(٥٤) — سورة إبراهيم ، الآية ٣٥ .

لقد أعلن لهم العداوة والبغضاء ، وتبرأ منهم ، واعتزل نواديهم ومجالسهم العامة والخاصة ، وتميز بعقيدته وسلوكه عنهم ، وتوج مواقفه منهم بتحطيم أصنامهم ، ووقف أمامهم يقول بكل قوة وجراءة :

﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ .

أف من عقولكم الجامدة التي ارتضت هذه الحجارة آلهة !! .

أف لما أنتم عليه من ضلالة وتقليد لما كان عليه آبائكم وأجدادكم !! .

أف من آلهتكم هذه التي لاتدفع عن نفسها ضرا ولا تجلب نفعاً !! .

وقال تعالى :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ولما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ .

بهذا كان خليل الرحمن أسوة حسنة ، أي في إعلان العداوة والبغضاء لأبيه وقومه ، وإعلانه البراءة منهم ولما يعبدون من دون الله .

وفي قوله تعالى : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ . قال أكثر المفسرين : إن هذا القول من إبراهيم ليس موضع التأسى^(٥٥) رغم أنه كان في بداية الدعوة وكان يرجو أن يلين قلبه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

ولابد من القول الذين عند تبليغ الدعوة للآخرين أما عند الإصرار على الشرك فلا يجوز التودد لأعداء الله سبحانه وتعالى ، ومن يتولهم فإنه منهم فليتق الله الدعاة ، وليقتدوا بإبراهيم عليه السلام ولا يسوغوا لأنفسهم الأعذار الواهية والحجج الباطلة ، وإذا كانوا غير قادرين على قول كلمة الحق فلا يقولون الباطل وذلك أضعف الإيمان .

وهؤلاء أنفسهم الذين يقولون للمسيء من الملاحدة خالفت الصواب ، نراهم يقولون لإخوانهم من الدعاة أشد الكلام وأقساه فليخشوا أن تصيبهم قارعة من الله أو يحل بهم عذاب أليم .

(٥٥) — أضواء البيان : ١٣٩/٨ .

الدرس السادس : قوة إبراهيم وجرأته

امتازت سيرة إبراهيم عليه السلام بكثرة مناظراته مع أبيه وقومه والتمروء ، وفي جميع هذه المناظرات كان يخرس أفواه خصومه بالحق ، ويلجم ألسنتهم بالأدلة القاطعة .. وفوق ذلك كان عليه السلام هو الذي يستدرج قومه ، ثم ينقلهم من إحراج إلى إحراج آخر لا يخسدون عليه ، وكان يقف بينهم متهماً فإذا به يصبح قاضياً وهم موضع الاتهام ، ويبقى زمام المبادرة بيده فهو الذي يحدد لهم زمن ومكان المبادرة ، ثم يخرج من بينهم منتصراً وقد أقام عليهم الحجة التي أمره الله بتبليغها .

انظر إلى قوله تعالى عن مناظرته مع التمرود بعد أن أقام عليه الحجة ﴿ فبهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ ، وقوله تعالى يصف حالة قومه بعد أن أعوزهم الدليل : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ، ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ .

وسبب قوة إبراهيم أولاً وأخيراً مردها إلى الله سبحانه وتعالى الذي منَّ عليه بالقدرة على الإقناع . قال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٦) .

إن الله عليم بالمواهب التي تفضل بها على عبده ورسوله إبراهيم ، لقد كان ذكياً فطناً ، حسن الأسلوب ، غزير العلم ، صادق النية .. ولهذا كان أمة في قومه رغم أن الناس كانوا جميعاً ضده وليس معه إلا زوجه وابن أخيه .

(٥٦) — سورة الأنعام ، الآية ٨٣ .

وفي المقابل نجد أن الدعاة في زمتنا كثر ويعدون بالملايين لكنهم جميعاً ليسوا في مستوى قوة إبراهيم عليه السلام ، وهذا يدعونا إلى التأكيد بأن القضية قضية كيف وليست قضية كم !! .

قليل جداً من هؤلاء الدعاة من يجتمع فيه صدق النية ، وغزارة العلم ، والقدرة على وضع الكلمة المناسبة في مكانها المناسب ، والجرأة على الصدع بالحق .

فقد يكون هناك رجال صادقون مجاهدون لكن الأمور تلتبس عليهم لقلة علمهم وعدم إحاطتهم بأحكام الدين ، وقد يكون هناك علماء لكنهم لا يصدعون بالحق .. ألا ما أشد حاجة أمتنا الإسلامية إلى رجال يتأسون بإبراهيم عليه السلام ، ويقيمون حجة الله على خلقه في كل مكان وزمان .



الدرس السابع : كانت الدعوة إلى الله كل شيء في حياة إبراهيم

صدع إبراهيم عليه السلام بدعوة الحق منذ أن آتاه الله رشده ، فكان لا يترك مجالاً ، ولا تفوته مناسبة إلا ويعلن فيها الدعوة إلى توحيد الله ، ونبذ ما يُعبد من دونه من أصنام وأوثان .

وإذن لم تكن دعوة خليل الرحمن سرية مقصورة على فئة محدودة من الناس ، ولا مجهولة عند عامة الناس . لقد كان سكان المدن والحضر ، وعامة قومه وخاصتهم والناس كل الناس يعرفون معالم الدعوة التي يشر بها الفتى إبراهيم .

وعندما هدده أبوه بالضرب والرجم .. وعندما نفذ صبر قومه وتوعده بالقتل والإعدام — وكان يعلم أنهم يعنون ما يقولون — لم يتراجع ، ولم يغير من أصول دعوته ليلتقي معهم في منتصف الطريق ، ولم يلتمس لنفسه الأعذار ويدخل سرداباً من سراديب السرية أو يسكت عن الهجوم على أصنام قومه متذرعاً بمصلحة الدعوة .

لم يفعل شيئاً من ذلك ، وحاشاه أن يتراجع أو أن يساوم وهو الذي وصفه الحق جلّ وعلا بالأمانة والاستقامة والصدق والوفاء . لقد كانت الدعوة عنده أهم من نفسه وزوجه وأبيه وأهله وقومه وماله ، وكانت شغله الشاغل ، وقضيته التي لا تقدم عليها قضية .. وفي أشد ساعات الخطر أقدم على تحطيم أصنام قومه وهي أعز شيء عندهم ، وبعد تحطيم الأصنام لم يهرب ويتوار عن أنظارهم ، لا بل اتخذ من محاكمتهم مجالاً لنشر دعوته وإقامة الحجة عليهم وكان هو بوايدٍ وهم بوايدٍ آخر .

ومن يقلب أوراق التاريخ يعلم أن الأنبياء والدعاة المصلحين سلكوا الطريق الذي سلكه إبراهيم عليه السلام ، فكان يعرفهم القاصي والداني ، وكانوا يصدعون بالحق لا يخافون الجبابة ولا يخشون الظالمين ، وكانت المحن والمصائب تزيدهم ثباتاً

واستقامة على المحجة البيضاء ، ولذلك استجاب لهم الناس ، ونصر الله بهم دينه ، أما النكرات من الدعاة الذين لا يعرفهم أحد من الناس ، ويتوجسون خيفة من الأشباح ، ويحسبون كل صيحة عليهم ، وتسيطر عليهم الأوهام ، وتنهار عزائمهم إذا حل بهم مكروه .. إن هؤلاء أعجز من أن يغيروا واقعاً لأنهم عجزوا عن تغيير ما بأنفسهم .

إن الذين يخلطون بين مصالحهم والدعوة ، ويقبلون أنصاف وأرباع الحلول ، ويقضون معظم حياتهم في الدعوة في دهاليز السرية ، ولا يرون بأساً من مصادقة الطغاة .. هؤلاء أخطر على الدعوة الإسلامية من أعدائها ، وعلى أتباعهم أن ينتهبوا إلى خطر الفتاوى التي تدبجها يراع شيوخهم ولينظروا إليها بعين الحذر .

ولابد من التنويه إلى أن الدعاة قد يضطرون في فترة من الفترات إلى اللجوء إلى السرية في العمل كما فعل ﷺ عند بداية الدعوة .. لكن هذه السرية استثناء وليست أصلاً ، ضرورة وليست منهجاً ، ولا يصح بعد نزول قوله تعالى :

﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ .

أن تكون جوانب الدعوة كلها سرية ، فلا بد من وجود رجال أعلام يبلغون الدعوة ، ويصبرون على كل أذى يصيبهم في سبيل الله ، وتكون حياتهم كلها للدعوة كما كانت حياة إبراهيم عليه السلام^(*) .



(*) — سنن أبي داود في مسألة السرية والعلنية في كتاب « دراسات في السيرة » أرجو أن يرى النور قريباً .

المبحث الخامس

لوط عليه السلام

- أولاً — أخلاق قوم لوط .
- ثانياً — خطورة اللواط .
- ثالثاً — رد قوم لوط على نبيهم .
- رابعاً — لماذا أخبر الملائكة إبراهيم بمهمتهم قبل لوط .
- خامساً — هلاك قوم لوط .

أولاً — أخلاق قوم لوط

هو لوط بن هاران بن آزر آمن بدعوة عمه إبراهيم عليهما السلام ، وهاجر معه من بابل كما قال تعالى :

﴿ فَأَمِّنَ لَهُ لُوطُ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وصاحبه في جميع رحلاته حتى استقر به المقام في سدوم من أرض غور زغر بعد عودتهم من مصر ، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة ، ومن السور التي ورد ذكره فيها : الأعراف ، وهود ، والحجر ، الشعراء ، النمل ، والتحريم^(١) .

وكان أهل سدوم من أفجر الناس ، وأخبثهم سريرة وسيرة ، وأسوأهم طوية .. وكانوا يحاربون الله وأنبياءه ، ويسعون في الأرض فساداً ، ويقطعون الطريق ، ويخونون الصديق ، ويأتون في ناديم المنكر جهاراً علناً دون حياء أو خجل ، وما كان فيهم رجل واحد رشيد . قال تعالى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ، إِنْ كُنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾^(٢) .

(١) — قصص الأنبياء للنجار ص ٧٨ . وللمفسرين قولان في ضمير [قال] في قوله تعالى : « فَأَمِّنَ لَهُ لُوطُ

وقال إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. » فبعضهم قال يعود الضمير إلى إبراهيم ، وبعضهم الآخر قال يعود إلى

لوط ، وعلى كل حال فلوط هاجر إلى ربه مع إبراهيم عليهما السلام .

(٢) — سورة الأعراف ، الآية : ٨٠ و ٨١ .

وقال :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ، أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُجَاهِلُونَ ﴾ (٣).

وقال :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ .. ﴾ (٤).

وقال :

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (٥).

وإذن : كان قوم لوط يفعلون الفاحشة ، ويأتون الرجال شهوة من دون النساء ، ولم يسبقهم بهذا الفعل الشنيع أحد من العالمين ، ولهذا كانت معظم الآيات التي ذكر فيها اسم لوط عليه السلام تشير إلى فساد فطرة قومه المتمثلة في إتيانهم الذكران من العالمين ، وترك ما خلق من النساء لعباده المؤمنين .

فليس من المستغرب أن تكون مشكلة إتيان الذكران من العالمين أهم قضية في دعوة لوط عليه السلام لأن قومه لو استجابوا له في دعوته إلى الإيمان بالله وعدم الإشراك به لما كان لاستجاباتهم أي معنى إذا لم يقلعوا عن عاداتهم الخبيثة التي اجتمعوا عليها ، ولم يتستروا في فعلها ، بل أصبحت جزءاً من نظام حياتهم إلى درجة أنهم كانوا يستغربون من لوط دعوتهم إلى نبذ هذه الأعمال المشينة .

(٣) — سورة النمل ، الآية ٥٤ و ٥٥ .

(٤) — سورة العنكبوت ، الآية ٢٨ و ٢٩ .

(٥) — سورة الشعراء ، الآية ١٦٠ حتى ١٦٦ .

ولو أن إتيان الذكران من العالمين كان خلقاً فردياً عند قوم لوط ، ينستر المجرمون في فعله هان الأمر ، غير أن الله تعالت أسماؤه وصفاته أخبرنا أنه لم يكن في قوم لوط رجل واحد رشيد !! .

ثمة أمر لا بد من التنويه إليه وهو أن كل نبي بعثه الله لهداية قومه ، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم وعاداتهم ، وهذا يقتضي أن يتصدى النبي لعلاج ومواجهة أخطر المشكلات مهما كلفه ذلك من تضحيات ، وهذا يخالف سلوك بعض الدعاة في عصرنا الذين يعالجون قضايا عفا عليها الزمن ، ويسكتون عن قضايا لأن إثارتها تغضب الطغاة ، وأمثال هؤلاء الدعاة يريدون دعوة لا تكلفهم محناً وابتلاءات .



ثانياً - خطورة اللواط

ومن أجل أن نبين حجم المشكلة وخطورتها نسوق فيما يلي مقالته المختصون من أهل العلم في هذه المسألة :

١ - الرغبة عن المرأة : من شأن اللواط أن تصرف الرجل عن المرأة ، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها ، وبذلك تعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج ، وهي إيجاد النسل .

ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج ، فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا ، فلا تظفر بالسكن ، ولا بالمودة ، ولا بالرحمة التي هي دستور الحياة الزوجية ، فتقضي حياتها معذبة معلقة ، لا هي متزوجة ولا مطلقة .

٢ - التأثير في الأعصاب : وإن هذه العادة تغزو النفس ، وتؤثر في الأعصاب تأثيراً خاصاً أحد نتائجه الإصابة بالانعكاس النفسي في خلق الفرد ، فيشعر في صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلاً ، وينقلب الشعور إلى شذوذ ، به ينعكس شعور اللائط انعكاساً غريباً ، فيشعر بميل إلى بني جنسه ، وتتجه أفكاره الحبيثة إلى أعضائهم التناسلية ومن هذا تستطيع أن تبين العلة الحقيقية في إسراف بعض الشباب الساقطين في التزين وتقليدهم النساء في وضع المساحيق المختلفة على وجوههم ، ومحاولتهم الظهور بمظهر الجمال بتحميم أصداعهم ، وتزجيج حواجبهم ، وتشهيم في مشيتهم ، إلى غير ذلك مما نشاهده جميعاً في كل مكان . وتقع عليه أبصارنا في كثير من الأحيان .

ولقد أثبت كتب الطب كثيراً من الوقائع الغريبة التي تتعلق بهذا الشذوذ أضرب صفحاً عن ذكرها .

ولا يقتصر الأمر على إصابة اللائط بالانعكاس النفسي ، بل هنالك ماتسيبه هذه الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية في الشخص كذلك ، وما تحدثه من جعله عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة وعلل نفسية شائنة ، تفقده لذة الحياة ، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة ، فتحيي فيه لوثات وراثية خاصة ، وتظهر عليه آفات عصبية كامنة تبديها هذه الفاحشة ، وتدعو إلى تسلطها عليه .

ومثل هذه الآفات العصبية النفسية : الأمراض السادية ، والماسوشيه ، والفيتشرم وغيرها .

٣ — التأثير على المخ : واللواط بجانب ذلك يسبب اختلالاً كبيراً في توازن عقل المرء ، وارتباكاً عاماً في تفكيره ، وركوداً غريباً في تصوراتهِ ، وبلاهة واضحة في عقله ، وضعفاً شديداً في إرادته .

وإن ذلك ليرجع إلى قلة الإفرازات الداخلية التي تفرزها الغدة الدرقية ، والغدد فوق الكلّية ، وغيرها مما يتأثر باللواط تأثيراً مباشراً ، فيضطرب عملها وتختل وظائفها .

وإنك لتجد هنالك علاقة وثيقة بين (الينروستانيا) واللواط ، ارتباطاً غريباً بينهما ، فيصاب اللائط بالبله والعبط وشروذ الفكر وضياع العقل والرشاد .

٤ — السويداء : واللواط إما أن يكون سبباً في ظهور مرض السويداء أو يغدو عاملاً قوياً على إظهاره وبعثه . ولقد وجد أن هذه الفاحشة وسيلة شديدة التأثير على هذا الداء من حيث مضاعفتها له وزيادة تعقيدها لأعراضه ويرجع ذلك للشذوذ الوظيفي لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم .

٥ — عدم كفاية اللواط : واللواط علة شاذة ، وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية ، لاتقوم بإرضاء المجموع العصبي ، شديدة الوطأة على الجهاز العضلي ، سيئة التأثير على سائر أجزاء البدن .

وإذا نظرنا إلى فسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية التي تؤديها الأعضاء التناسلية وقت المباشرة ، ثم قارنا ذلك بما يحدث في اللواط ، وجدنا الفرق بعيداً والبون بين الحالتين شاسعاً ، ناهيك بعدم صلاحية الموضع وفقد ملاءمته للموضع الشاذ .

٦ — ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه : وإنك إذا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى وجدته سبباً في تمزق المستقيم وهتك أنسجته وارتخاء عضلاته وسقوط بعض أجزائه ، وفقد السيطرة على المواد البرازية وعدم استطاعة القبض عليها ، ولذلك تجد الفاسقين دائمي التلوث بهذه المواد المتعفنة بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور .

٧ — علاقة اللواط بالأخلاق : واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسي خطير ، فتجد جميع من يتصفون به سيئي الخلق فاسدي الطباع ، لا يكادون يميزون بين الفضائل والردائل .

ضعيفي الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم ، لا يتحرج أحدهم ، ولا يردعه رادع نفسي ، عن السطو على الأطفال الصغار واستعمال العنف والشدة لاشباع عاطفته الفاسدة والتجرؤ على ارتكاب الجرائم التي نسمع عنها كثيراً ونطالع أخبارها في الجرائد السيارة وفي غيرها ، ونجد تفاصيل حوادثها في المحاكم وفي كتب الطب .

٨ — اللواط وعلاقته بالصحة العامة : واللواط فوق ما ذكرت يصيب مقترفيه بضيق الصدر ويرزؤهم بخفقان القلب .

ويتركه بحال من الضعف العام يعرضهم للإصابة بشتى الأمراض ويجعلهم نهباً لمختلف العلل والأوصاب .

٩ — التأثير على أعضاء التناسل : ويضعف اللواط كذلك مراكز الإنزال الرئيسية في الجسم ويعمل على القضاء على الحيوية المنوية فيه ، ويؤثر على تركيب مواد المنى ثم ينتهي الأمر بعد قليل من الزمن بعدم القدرة على إيجاد النسل ، والإصابة بالعقم مما يحكم على اللائطين بالانقراض والزوال .

١٠ — التيفود والدوسنتارية : ونستطيع أن نقول : إن اللواط يسبب بجانب ذلك العدوى بالحمى التيفودية والدوسنتاريا وغيرهما من الأمراض الخبيثة التي تنقل بطريق التلوث بالمواد البرازية المزودة بمختلف الجراثيم ، المملوءة بشتى أسباب العلل والأمراض .

١١ — أمراض الزنا: ولا يخفى أن الأمراض التي تنتشر بالزنا يمكن أن تنتشر كذلك بطريق اللواط ، وتصيب أصحابه فتفتك بهم فتكاً ذريعاً ، فتبلى أجسامهم ، وتحصد أرواحهم^(٦).



(٦) — كتاب الإسلام والطب للدكتور محمد وصفي [عن فقه السنة للشيخ سيد سابق ص ٢/٤٢٩].

ثالثاً — رد قوم لوط على نبيهم

لم يكتف قوم لوط بالصدود والإعراض عن دعوة نبيهم ، وإنما هددوه بالإخراج من قريتهم ، ولم يخجلوا في بيان سبب التهديد . قال تعالى على لسانهم : ﴿ لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾ ^(٧) .

والإخراج يعني مصادرة أملاكه ، وإسقاط الجنسية عنه كما يقولون في لغة أهل هذا العصر ، أما عن سبب طرده فيقول تعالى على لسانهم : ﴿ أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ ^(٨) .
والشاهد هنا قوله تعالى : ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ .

إنهم — أي آل لوط — يأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويدعون إلى توحيد الله وعدم الإشراك به ، وينكرون علينا إتيان الذكران من العالمين ، ويجتنبون الفواحش والبغى والإثم .

إن الذي نعرفه عن الطغاة أنهم يقلبون الحقائق ، ويلصقون بالدعاة أعمالاً قبيحة ، ويزعمون أنهم دعاة إصلاح ، أما قوم لوط ، فقد قالوها صريحة واضحة مجلجلة : لا مقام لمن يتطهر في أرضنا !! ، ولا تؤمن بشيء اسمه الشرف أو العفة !! .

إن طغاة عصرنا يشبهون قوم لوط في جوانب كثيرة من أهمها : مطاردة الدعاة إلى الله ، وتشجيع دعاة الفاحشة ، والتعاون مع المجرمين وتجار المخدرات والخمور ،

(٧) — سورة الشعراء ، الآية : ١٦٧ .

(٨) — سورة النمل ، الآية : ٥٦ .

وإسناد أرفع المناصب للملاحدة والمنحرفين والشاذين من الناس . ورحم الله من قال :

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد

ويختلف هؤلاء الطغاة عن قوم لوط في جانب واحد ، فهم لا يسمون الأمور بمسمياتها ، ولهذا فهم يزعمون بأنهم رواد إصلاح ونهضة ، أما الدعاة إلى الله فهم مجرمون وقطاع طرق .

وبلغ الاستهتار عند قوم لوط منتهاه عندما راحوا يستعجلون عذاب الله . قال تعالى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ، أَتِنَكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٩) .

انظر إلى قولهم : ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، ويبدو أن نفوسهم الأماراة بالسوء حدثتهم بأن لوطاً ليس صادقاً ، ولن يحل بهم عذاب ، أو تنزل بهم قارعة ، ولن تتغير أحوالهم ، وسوف تستمر لهم الأيام كما يريدون .

﴿ قَالَ رَب انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، قالها نوح بعد أن نفذ صبره ، واستنفذ جميع طاقاته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. قالها لوط بعد أن ازدادت جرأة قومه على الله ، وتمادوا في فجورهم ، واستهانوا بكل القيم والأخلاق . قالها يشكو ضعف قوته ، وقلة حيلته ، وهوانه على قومه .

قالها وهو مؤمن بأن الله لن يتخلى عنه ولن يخذله لأنه عبده ونبيه ، ولأن النصر للذين يأخذون بأسباب النصر سنة ثابتة من سنن الله التي لا يعثرها تغيير ولا تبديل .

(٩) — سورة العنكبوت ، الآيات : ٢٨ و ٢٩ و ٣٠

رابعاً — لماذا أخبر الملائكة إبراهيم بمهمتهم قبل لوط

استجاب الله تعالى لدعوة نبيه لوط عليه السلام :

﴿ قَالَ رَب انصُرني على القوم المفسدين ﴾ ، فأرسل ملائكته إلى قوم لوط لينفذوا أمره في أهل قرية [سدوم] التي خلت من الصالحين ، ولم ينفع في أهلها التهديد ولا الوعيد ، ولم يستجب لنبي الله رجل واحد بعد أمد طويل من تبليغ الدعوة وإقامة الحججة .

وشاء الله تعالى أن تكون « التيمن » أول محطة في طريق ملائكة الرحمن إلى القرية ، وفيها — أي التيمن — اجتمعوا بخليل الرحمن عليه السلام ، فأحسن استقبالهم ، وقدم إليهم أفضل ما عنده من طعام ، مع أنه لم يكن يعرفهم ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الكرم والجود وإقراء الضيف خلق فطري وطبع أصيل عند إبراهيم وعند جميع أنبياء الله ورسله .

ولما رأى أيديهم لا تمتد إلى العجل الحنيد الذي قدمه إليهم ، أوجس منهم خيفة ، فما لبثوا أن عرفوه على أنفسهم وعلى المهمة التي كلفهم رب العزة بها ، وأخذ عليه السلام يجادلهم في قوم لوط ، ولا غرابة في هذا فلقد كان إبراهيم حليماً أوهاً منياً ، فلقد كان يرجو لقوم لوط غير هذا المصير ، كما كان يخشى على لوط أن يناله نصيب من هذا العذاب .

وقطع ملائكة الرحمن طريق المجادلة على إبراهيم عندما أخبروه بأن أمر الله قد جاء في أهل هذه القرية ، ولا راد لقضائه وقدره ، بل وإبراهيم عليه السلام أول من يعلم بأن أمر الله إذا جاء لا يتقدم أو يتأخر لحظة واحدة .

وفي هذه الزيارة المباركة بشر الملائكة خليل الرحمن بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، كما بشره بأن لوطاً لن يحل به أذى أو مكروه إلا زوجته التي خانتها ، وكانت تنقل أسرارها لقومه .. ومن شاء مزيداً من المعلومات عن هذه الزيارة الكريمة فليعد إلى سورة هود ، والحجر ، والعنكبوت ، والذاريات .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا :

لماذا أخبر الملائكة إبراهيم قبل لوط ، مع أن مهمتهم تتعلق بسدوم وليست بالتيمن ؟!

وجوابنا على هذا السؤال يتلخص في النقاط التالية :

١ — إن لوطاً كان أول من آمن بدعوة إبراهيم في بابل ، وشاركه في معظم محنه ومصائبه ، وخرج معه مهاجراً في أرض الله الواسعة ، وعندما أكرمه الله بالنبوة لم تنقطع صلته بإبراهيم لقوة الأواصر التي تربط بينهما :

فكلاهما عضوان في حزب الله ، وإن كان بينهما تفاوت في الرتبة ، فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء و خليل الرحمن ، ومن أولي العزم ، وهو فوق ذلك أقرب الأنبياء والرسل من ربه بعد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والتسليم .

ومن غير الممكن أن يعيش جماعة من المسلمين في عصر واحد ، وفي أمكنة متقاربة ، ولا تكون بينهم روابط منظمة ، وأواصر قوية .

٢ — إذا كان هناك من يقول : لم يكن لإبراهيم صلات مع لوط بعد أن صار نبياً .. فهل كان الملائكة يفحصون بما أمرهم به ربهم لرجل غير معني بالأمر ؟!

وهل كان إبراهيم — وهو يجادل ملائكة الرحمن في أمر قوم لوط — فضولياً يتدخل بأمور لا تعنيه ؟!

لايجوز لمسلم أن يعتقد مثل هذا الاعتقاد بالملائكة ولا بإبراهيم عليه السلام .

ومن كل ما ذكرناه نعلم أن ملائكة الرحمن جاءوا يخبرون إبراهيم بما سيحل بقرية سدوم ، لأنه من حقه أن يعلم بهذه المسألة قبل لوط ، فهو قائده وأستاذه ، كما أنه قائد لكل موحد بالله في عصره ، ولولا ذلك لكان من الممكن أن يصل الملائكة قرية

[سدوم] خلال لحظات ودون أن يَمروا على [التيمن] .

٣ — بعد أن استخرجنا من الآيات القرآنية ما يفهم منه أن إبراهيم كان قائداً للوط ، ولكل مسلم في عصره ، لأبأس من الالتفات إلى أقوال المؤرخين المحققين والاستئناس بها . قال ابن كثير رحمه الله :

« .. ثم إن لوطاً عليه السلام نزع بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل إلى أرض الغور » .

والشاهد هنا أن نزوح لوط إلى أرض الغور كان بأمر من الخليل عليهما السلام ، والأمر لا يكون إلا من قائد لجندي في صفه .

وقال ابن كثير في موضع آخر :

« .. ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأَسْرَوْه وأخذوا أمواله ، واستاقوا أنعامه ، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً ، فاستنقذ لوطاً واسترجع أمواله ، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وسار في آثارهم حتى وصل إلى شمال دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة » (١٠) اهـ .

وقد حرصنا على تأكيد ارتباط لوط بإبراهيم عليهما السلام ، ليعلم المسلمون حيثما كانوا ، وفي أي أرض أقاموا بأن المنتسبين إلى حزب الله سبحانه وتعالى جماعة واحدة ، لها منهج واحد لا يجوز أن يتعدد ، ولها قيادة واحدة ترعى شؤونها ، وتنظم كافة أمورها ، وتعدد القيادات والجماعات الإسلامية اليوم حالة مَرَضِيَّة يجب أن لاتستمر بحال من الأحوال .. وكل مسلم مسؤول عن علاج هذه الظاهرة ليعود المسلمون كما كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وليكون الدين كله لله (١١) .

(١٠) — قصص الأنبياء لابن كثير : ١٩٨ — ١/١٩٩ . تحقيق عبد الواحد .

(١١) — اطلع أحد الأصدقاء على هذا الكتاب قبل نشره ، ولم يوافقني في هذه المسألة لأنني لم أعتمد على دليل — حسب رأيه — ، ولم أسبق إلى مثل هذا القول .

ومع تقديري لوجهة نظر الصديق ، فأنا مطمئن لما ذهبت إليه في هذه المسألة لأنني : لم أحمل النص القرآني ما لا يحتمل ، ولم أخالف في فهمي له نصاً شرعياً ، ولا أصلاً من الأصول الإسلامية .

خامساً — هلاك قوم لوط

قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ .
وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُفْرِعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَأْقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي
هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ . قَالُوا
لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً
أَوْ عَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًاكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ
إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مُنْقُودٍ . مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ
الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴾ (١٢) .

— ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ : ساء مجيئهم لأنه خاف عليهم من قومه ، وقد أتوا — كما قال
المفسرون — أرض سدوم في صور شبان حسان اختباراً من الله لقوم لوط .

أخرج الطبري عن حذيفة ، أنه قال : « لما جاءت الرسل لوطاً أتوه وهو في
أرض له يعمل فيها ، وقد قيل لهم ، والله أعلم : لا تهلكوهم حتى يشهد لوط . قال :
فأتوه فقالوا : إنا متضيفوك الليلة . فانطلق بهم ، فلما مشى ساعة التفت ، فقال : أما
تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أناساً أخبث منهم !
قال : فمضى معهم . ثم قال الثانية مثل ما قال ، فانطلق بهم . فلما بصرت بهم عجوز

السوء امرأته ، انطلقت فأندرتهم « (١٣) اهـ .

— ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ . أي جاءه يهرولون متهبجة أعصابهم كأن سائقاً يسوقهم ، وكان لوط عليه السلام قد حاول أن يكون أمرهم سرياً ، ولكن عجوز الشر كشفت هذا السر ، وكان من ورائه هلاك القوم ولوط لا يدري ماذا سيفعل الله بهم .

— ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ ، ومن أفضح هذه السيئات الكثيرة التي كانوا يعملونها : إتيان الرجال شهوة من دون النساء ، ومجاهرتهم بها في أنديتهم .

— ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تحزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ﴾ .

راح لوط عليه السلام يمانع قومه ويدافعهم والباب مغلق ، وهم يرومون فتحه وولوجه ، ولما عجز عن دفعهم وخشي من الاذلال وفضيحتة في ضيفه قال لهم :

﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ .

وزعم بعضهم أن لوطاً عليه السلام عرض على قومه الفساق المجرمين أن يستمتعوا ببناته كما يشاءون ، ومثل هذا الزعم لا يسنده دليل بل ويخالف عقيدة أهل السنة والجماعة في أنبياء الله ورسله ، ومعاذ الله أن يقع هذا الأمر من رجل صالح فضلاً عن نبي مرسل . ولقد كانت الدعوة إلى نبذ اللواط أهم شيء في رسالة لوط عليه السلام ، فكيف يدعو قومه بعد ذلك إلى الزنا ببناته ١٩ .

بل وكيف يجوز لمسلم أن يعتقد أن لوطاً دعا قومه إلى الزنا ببناته ثم قال ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ ، كيف يجتمع الزنا مع الطهارة مع أن غسل الدم بالبول ليس من الطهارة في شيء ١٩ .

لا يصح هذا الاعتقاد بلوط عليه السلام ، وإن كان يعتقد أنهم لا يجبيونه إلى هذا الفعل ، بل الذنب في هذه الحال أكبر لأنه أمر بالمنكر .

والدعوة إلى الزنا تتعارض مع قوله ﴿ هن أطهر لكم ﴾ كما تتعارض مع قوله

﴿ فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ﴾ ، فإن الزنا ليس من التقوى بل هو هدم لها .

وإذا كان الاعتقاد بأن لوطاً دعا قومه إلى الزنا بيناته مخالفاً لعقيدة أهل السنة والجماعة ، وليس فيه دليل يعتد به ، بل ويتعارض مع تنمة الآية في دعوته إلى الطهارة والتقوى .. إذا كان الأمر كذلك فلا بأس من ذكر بعض مآقاله المفسرون في تأويل هذه الآية :

— كان رؤسائهم قد خطبوا بناته لصلبه فلم يجبهن ، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه بالموافقة على تزويجهن . قاله ابن عباس .

— عرض عليهم بنات القرية وهن أزواجهن ، لأن كل نبي أرسل إلى قوم فأولادهم أبناءه ونسائهم بناته . ولعل هذا القول هو أضعف الأقوال . قاله مجاهد وسعيد ابن جبير .

— لا يعقل البتة أن يكون كل واحد من أهل القرية — الذين جاءوا إليه يزفون — يأمل أن ينال حاجته من الملائكة ، والذي يذكره المفسرون أنه كان لأهل القرية سيدان مطاعان ، فأراد أن يزوجهما ابنتيه .

— ﴿ قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ .

إنك لتعلم بالوط أن حاجتنا في غير بناتك ، وأن الذي نريد هو ماتنهانا عنه .

— ﴿ قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ .

قال ابو جعفر :

« يقول تعالى ذكره : قال لوط لقومه ، حين أبوا إلا المضي لما قد جاءوا له من طلب الفاحشة ، وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم :

﴿ لو أن لي بكم قوة ﴾ ، بأنصار تنصرتني عليكم ، وأعوان تعينني ﴾ أو آوي إلى

ركن شديد ﴾ ، يقول أو أنضم إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم ، لحلت بينكم وبين

ما جئتم تريدونه مني في أضيافي ، وحذف جواب [لو] للدلالة الكلام عليه ، وأن

معناه مفهوم « (١٤) اهـ .

وبعد أن بلغ الضيق بلوط مبلغه ، ولم يجد بين قومه رجلاً واحداً رشيداً ، بل كانوا جميعاً سفهاء فجرة كفرة ، وبعد أن أضناه التعب في يوم شديد شراً ، عظيم بلاؤه نظر إلى قومه وقال ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :
« يرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد » .

وقال الحافظ ابن حجر :

« ويقال إن قوم لوط لم يكن فيهم أحد يجتمع معه في نسبه لأنهم من سدوم وهي من الشام وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق . فلما هاجر إبراهيم إلى الشام هاجر معه لوط فبعث الله لوطاً إلى أهل سدوم فقال : لو أن لي منعة وأقارب وعشيرة لكنت أستنصر بهم عليكم ليدفعوا عن ضيفائي . ولهذا جاء في بعض طرق هذا الحديث كما أخرجه أحمد من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :

« قال لوط لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ، قال : فإنه كان يأوي إلى ركن شديد ولكنه عنى عشيرته فما بعث الله نبياً إلا في ذروة من قومه » (١٥) اهـ .
— ﴿ يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ .

هون عليك الأمر يالوط ، فإنهم لن يصلوا إليك وإلى ضيفك بمكروه ، فقد جاء أمر الله .. وعلم لوط عليه السلام أنه في حضرة رسل الله ، وأن ركنه لشديد ، فاطمأنت نفسه وذهب عنه القلق ، وقام جبريل عليه السلام — كما ذكر

(١٤) — تفسير الطبري : ٤١٨/١٥ دار المعارف في القاهرة ، واعتمدت كذلك في شرح الآيات على تفسير

القرآن الحكيم — المنار — ل محمد رشيد رضا ١٣٤/١٢ دار المعرفة ، وتفسير القرطبي : ٧٦/١٠ دار

الكاتب العربي .

(١٥) — فتح الباري بشرح البخاري ٧/٢٢٦ مطبعة الباني الحلبي .

المفسرون — فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم^(١٦). قال تعالى :

﴿ ولقد راودوه عن ضيقه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ، ولقد صبّهم بكرة عذاب مستقر ﴾^(١٧).

— ويبدو أن لوطاً سأل الملائكة استعجال العذاب فأجابوه بقوله تعالى :

﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾.

بلى إنه قريب ، ووعد الله حق لا ريب فيه ، وكل شيء عنده بمقدار ، ولن يتأخر موعد هلاكهم أو يتقدم لحظة واحدة ، وقد حددته من قبل أن يكون عند شروق الشمس . قال تعالى :

﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ .
وقال :

﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾^(١٨).

— خرج لوط عليه السلام من القرية الظالم أهلها ومعه ابتاه ، أما زوجته فكانت من الهالكين . قال تعالى :

﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ .
خرج لوط مع ابتيه في جنح الليل ، وترك وراءه المال والمتاع ، ولم يلتفتوا أو يندموا على ما حل بقومهم . قال تعالى : ﴿ ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم ﴾ .

— ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل

(١٦) — قصص الأنبياء ، ابن كثير ٢٦٦/١ .

(١٧) — سورة القمر ، الآية : ٣٧ و ٣٨ .

(١٨) — سورة الحجر ، الآية : ٦٦ .

منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴿ ١٩ ﴾ .

سجیل : الشدید الصُّلب القوی .

منضود : يتبع بعضه بعضاً في نزولها عليهم من السماء .

مسومة : معلمة عند الله .

وخلال ثوان معدودات جاءت الصيحة ، وسقطت البلدة ، وجعل الله عاليها سافلها ، وأرسل جلّ وعلا مطراً من حجارة صلبة ، فأهلك القوم كلهم جزاءً وفاقاً ، وجعل الله مكان تلك البلاد بَحْرَةً مَنتَنَةً لا يُتَنَفَّعُ بمائها ، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها .. وفي ذلك آية على قدرة الله وعظمته ، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره ، وكذب رسله ، واتبع هواه . قال تعالى :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

— ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

إن ديار قوم لوط ليست ببعيدة من الكفار المكذبين لنبينا ، فكان عليهم أن يعتبروا بما وقع لأهلها إذا مروا عليها في أسفارهم إلى الشام ، ويخافوا أن يوقع الله بهم بسبب تكذيب نبينا محمد ﷺ مثل ما وقع من العذاب بأولئك ، بسبب تكذيبهم لوطاً عليه الصلاة والسلام . والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً ، كقوله : (١٩)

﴿ وَإِنْكُمْ تَمُوتُونَ عَلَيْهِمْ مَصْبِحِينَ ، وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وستبقى بحيرة قوم لوط وآثار ديارهم عبرة للظالمين حيثما كانوا ، وإن من أبشع أنواع الحمق أن يغفل المشركون المتجبرون في الأرض عن قدرة الله وشدة بطشه ، ويركنوا إلى حولهم وقوتهم ، وعليهم أن يتذكروا أن الله جلت قدرته الذي أهلك قوم لوط

(١٩) — أضواء البيان : ٣/٣٥ .

بشوان معدودات قادر على إهلاكهم وتمزيق ملكهم مهما قويت شوكتهم وكثر عددهم
وتزايد بطشهم . قال تعالى :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله
عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ (٢٠).

أجل إن للكافرين أمثالها ، وفي كل يوم تظهر لنا أدلة جديدة تؤكد لنا أن كيد
الشیطان ضعيف ، والطیون من المسلمین الذین یغفلون عن سنن الله فی خلقه
یخسرون كثيراً ، وربما قادتهم هذه الخسارة إلى فتنة والعیاذ بالله سبحانه وتعالى .



(٢٠) — سورة محمد ، الآية : ١٠ .

المبحث السادس

إسماعيل عليه السلام

أولاً — ولادة إسماعيل .

ثانياً — رواية ابن عباس .

ثالثاً — بناء البيت .

أولاً — ولادة إسماعيل

كانت سارة عقيماً لاتلد، ويحسد أن اشتعل رأسها شيئاً، وبلغت من الكبر عتياً، نظرت إلى زوجها الوفي بعين الحطف والشفقة، وساءها مايلقاه من عنت في إدارة أرضه وأنعامه، فوهبته مخدومتها هاجر، وأشارت عليه أن يدخل بها، لعل الله يرزقه منها ولداً يرث عن أبيه الدعوة إلى الله والنبوة، ويساعده في إدارة أملاكه والإشراف على خدَمِهِ.

ودخل الخليل بهاجر، فأكرمه الله منها بإسماعيل، ولكن فرحة إبراهيم بولده لم تطل، لأن الغيرة لم تلبث أن دبت إلى قلب سارة، وأصبحت لاتطبق رؤية الغلام وأمه، فطلبت من زوجها أن يذهب بهاجر وابنها إلى مكان بعيد حتى لاتسمع صوتهما.

ولأمر يريده الله استجاب إبراهيم عليه السلام لرغبة زوجته سارة التي آمنت بدعوته، وكانت من أوائل الذين استجابوا له في أرض بابل، وشاركته آلامه وآماله، وهاجرت معه في رحلة شاقة، ونالها ماناها من الأذى فصبرت، وصانت عرضها وأصبحت رضي الله عنها جزءاً لايتجزأ من حياة خليل الرحمن.

وسوف نعرض فيما يلي رحلة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل وزوجه هاجر منذ خرج بهما من بلاد الشام وإلى أن بنى الوالد وابنه بيت الله الحرام. وقد وجدت أن رواية ابن عباس التي أخرجها البخاري في صحيحه هي أصح الروايات التي وردت في كتب الحديث والتاريخ وأشملها، فقممت بسرد هذه الرواية، واستعنت بتعليقات وشروح الحافظ ابن حجر العسقلاني، لأنه فارس هذا الميدان، وكان لي تعليقات قليلة عند الحاجة:

ثانياً — رواية ابن عباس

قال ابن عباس :

« أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ ^(١) مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ . ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلُ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ ^(٢) فَوْقَ الزَّمْزَمِ ^(٣) فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَاكَ . وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مِنْطَقًا . فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ :

يَا إِبْرَاهِيمُ ، أَتَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرَكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أَنْيْسٌ وَلَا شَيْءٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا . وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ :

اللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا ^(٤) ثُمَّ رَجَعَتْ فَأَنْطَلَقَ

(١) — المنطق بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء هو ما يشد به الوسط ، وهو جمع منطق . وكان السبب في ذلك أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم فحملت منه بإسماعيل فلما ولدته غارت منها فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء فاتخذت هاجر منطقاً فشددت به وسطها وهربت وجرت ذيلها لتخفي أثرها على سارة . ويقال إن إبراهيم شفع فيها وقال لسارة حللي يمينك بأن تثقبي أذنيها وتخفضيها . ووقع في رواية ابن عباس عند الإسماعيلي أول ما أحدث العرب جر الذبول عن أم إسماعيل وذكر الحديث . عن فتح الباري ٧/٢٠٨ .

(٢) — الدوحة : الشجرة الكبيرة من أي شجر كان والجمع « دَوَح » .

(٣) — الزمزم : وهو البئر المعروف اليوم ، ولم يكن المسجد حينئذ بني ، بل وما كانت مكة مسكونة .

(٤) — كيف استجاب إبراهيم عليه السلام لرغبة زوجته « سارة » ، وأبقى بفلذة كبده وقرّة عينه إسماعيل في صحراء موحشة ليس فيها أنيس ولا معين ؟!

إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية^(٥) حيث لا يرونها استقبل بوجهه البيت^(٦) ثم دعا

وكيف نجتمع بين حلم إبراهيم ورقة قلبه وبين صلابة موقفه من ابنه إسماعيل وأمه هاجر !! .

إن الجواب على هذين السؤالين واضح بين في سؤال هاجر وجواب إبراهيم عليه :

« الله الذي أمرك بهذا ؟ قال : نعم » .

وإذن : فلقد أرادت « سارة » أن يذهب إبراهيم بهاجر وابنها إلى أبعد الأماكن حتى لا تسمع صوتهما ، وأراد الله من إبراهيم أن يسكن ابنه إسماعيل في مكة المكرمة لأمر لا يعرف بعده إلا هو تعالت أسماؤه وصفاته .. ونفذ الخليل أمر ربه ، وترك وحيداً الصغير بواد غير ذي زرع ، ثم انطلق عائداً من حيث جاء ، وجعل لا يلتفت إلى هاجر ولا يجيبها خشية أن يلين قلبه ويكون من وراء هذه الليونة عدم تنفيذ أمر الله .

وإذا كان مثل هذا الموقف ليس مستغرباً عن الخليل عليه السلام ، فالعجيب قول هاجر :

« إذن لا يضيئنا » !! .

امرأة في أرض مقفرة جرداء ليس لها بيت تأوي إليه ، ولا قوم تستأنس بهم ، ولا نبع ماء تشرب منه وتسقي طفلها ، ولا مورد رزق تعتمد عليه !! .

عندما علمت هذه المرأة أن الله هو الذي أمر إبراهيم بهذا ، اطمأنت نفسها ، ولم تعد تخشى السباع وغيرها من الوحوش المفترسة لأنها أضعف وأجبن من أن تلحق ضرراً بمن تحرسه عناية الله .

مأحوج الدعاة والعلماء إلى إيمان بالله كإيمان هاجر ، وانقياد له كانقياد هاجر .

(٥) — جاء في رواية إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير التي خرجها البخاري في صحيحه : « حتى لما بلغوا كداء » وهو الموضع الذي دخل النبي ﷺ مكة منه .

(٦) — فهم بعضهم من قوله « استقبل بوجهه البيت » ، وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ أن البيت قديم وأول من بناه آدم عليه السلام ، وبعضهم قال أول من بناه إدريس ثم جرفه طوفان نوح .. وليس في هذه الأقوال دليل صحيح يعتد به . قال ابن كثير :

« ولم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام . ومن تمسك في هذا بقوله : « مكان البيت » فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله ، المقرر في

بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ — رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ — (٧) حَتَّى بَلَغَ — يَشْكُرُونَ — وَجَعَلْتُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفَذَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلْتُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى ، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ (٨) ، فَأَنْطَلَقْتُ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَوَجَدْتُ الصِّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ بَلِيهَا ، فَقَامْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلْتُ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا ، فَهَبَطْتُ مِنَ الصِّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْوَادِي رَفَعْتُ طَرَفَ دِرْعِيهَا (٩) ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزْتَ الْوَادِي ، ثُمَّ أَتَيْتِ الْمَرْوَةَ فَقَامْتُ عَلَيْهَا وَنَظَرْتُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا ، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا (١٠) . فَلَمَّا أَشْرَفْتُ عَلَى

== قدره المعظم عند الأنبياء موضعه ، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم .

وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة ، وأن الملائكة قالوا له : قد طفنا قبلك بهذا البيت ، وأن السفينة طافت به أربعين يوماً أو نحو ذلك . ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل . وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتاج بها « اهـ . عن قصص الأنبياء لابن كثير ٢٢٦/١ ، وقال نحو هذا القول صاحب أضواء البيان : ٦٤/٥ .

(٧) — الآية :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ

أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ سورة إبراهيم ، الآية : ٣٧ .

(٨) — يتلبط : أي يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض ، وفي رواية الكشميهني « يتلمظ » وهي رواية معمر أيضاً ،

وفي رواية إبراهيم بن نافع « كأنه ينشغ للموت » ، أي يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع .

(٩) — دِرْعُ الْمَرْأَةِ : قميصها وهو مذكر . عن مختار الصحاح .

(١٠) — انظر إلى قول الرسول ﷺ : « فذلك سعي الناس بينهما » ، فأني تكريم لهاجر أكبر من أن يسعى

الناس بين الصفا والمروة كل عام كما كانت تسعى رضي الله عنها !! .

وأية مشاركة شعورية ووحدة مصير أعظم من أن يروع المسلمون من كل فج عميق ليعيشوا مع

== هاجر بقلوبهم وعواطفهم وحركاتهم . قال الأستاذ أبو الحسن علي الحسيني الندوي :

المرؤة سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ صَهْ^(١١) تُرِيدُ نَفْسَهَا ، ثُمَّ تَسْمَعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا ، فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ^(١٢) ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ^(١٤) بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا ، وَجَعَلَتْ تَعْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَمَا تَعْرِفُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكْتُ أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَعْرِفْ مِنْ

« وخلق الله هذه الحركة الاضطرابية ، التي ظهرت من امرأة مؤمنة مخلصه ، فجعلها حركة اختيارية ، يكلف بها أعظم العقلاء ، وأعظم الفلاسفة والنبغاء ، وأعظم الملوك والعظماء ، في كل عصر ، وفي كل جيل ، فلا يتم نسكهم إلا بالسعي بين هذين الجبلين اللذين هما ميقات كل محب ، وغاية كل مطيع ، والسعي خير ممثل لموقف المسلم في هذا العالم ، فهو يجمع بين العقل والعاطفة ، وبين الحس والعقيدة ، إنه يستعين بالعقل ، ويستخدمه في مصالح حياته ، ولكنه ينفاد أحياناً للعاطفة ، التي هي أعمق من العقل ، إنه يعيش في عالم قد حُفَّ بالشهوات ، ومُلِيَءَ بالزخارف والمظاهر ، لكنه يمر بينها ، كالساعي بين الصفا والمرؤة ، لا يرجع على شيء ، ولا يتقيد بشيء ، إنما غايته وهمه ما يستقبله ، يعتبر حياته أشواطاً محدودة ، يقطعها إطاعة لربه ، واقتداءً بسلفه ، لا يمنعه إيمانه عن البحث والسعي ، ولا يمنعه سعيه عن التوكل على الله والثقة به ، حركة قيمتها وروحها ورسالتها « الحب » و « الانقياد » .

عن كتاب الأركان الأربعة ص ٢٣٧ .

(١١) — صه : كأنها خاطبت نفسها فقالت لها اسكتي .

(١٢) — أي أغثني ، وفي رواية إبراهيم بن نافع وابن جريج : فقالت أغثني إن كان عندك خير .

(١٣) — في رواية إبراهيم وابن جريج « فإذا جبيل » ، وفي حديث عليّ عند الطبري بإسناد حسن : « فنادها

جبيل فقال : من أنت ؟ قالت : أنا هاجر أم ولد إبراهيم ، قال : فأبلى من وكلكما ؟ قالت : إلى الله

تعالى قال : وكلكما إلى كاف » .

(١٤) — بعقبه : أي بمؤخر رجله ، وقوله (فبحث بعقبه أو قال بجناحه) شك من الراوي ، وفي رواية إبراهيم بن

نافع « فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الأرض » وهي تعين أن ذلك كان بعقبه .

عن فتح الباري .

زَمَزَمَ لَكَائَتْ زَمَزُمُ عَيْنًا مَعِينًا^(١٥)، قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ^(١٦)، فَإِنَّ هَذَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِي^(١٧) هَذَا الْغَلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ. وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السَّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَائَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُقَّةٌ^(١٨) مِنْ جُرْهَمٍ^(١٩) أَوْ أَهْلِ بَيْتِ مِنْ جُرْهَمٍ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَتَزَلُّوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا^(٢٠) عَائِفًا فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهِذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا^(٢١) أَوْ

(١٥) — « ففعلت تحوضه »: واحد الأحواض، وحاض الرجل، اتخذ حوضاً. بجمع الماء، وقوله ﷺ

« عينا معينا » أي ظاهراً جارياً على وجه الأرض. وفي رواية ابن نافع « كان الماء ظاهراً ».

وقال ابن الجوزي:

« كان ظهور زمزم نعمة من الله محضة بغير عمل عامل فلما خالطها تحويط هاجر داخلها كسب البشر فقصرت على ذلك فأغنى ذلك عن توجيه تذكير معين مع أن الموصوف وهو المعين مؤنث ».

(١٦) — « لا تخافوا الضيعة »: أي الهلاك، وفي حديث أبي جهم « لا تخافي أن ينفذ الماء »، وفي رواية علي بن الوازع عن أيوب عند الفاكهي « لا تخافي على أهل هذا الوادي ظمأ فإنها عين يشرب بها ضيفان الله ».

(١٧) — « يبنّي هذا الغلام » كذا فيه بحذف المفعول، وفي رواية الاسماعيلي « يبنيه ». وفي قوله « فشربت وأرضعت » اشعار بأنها كانت تغتذي بماء زمزم فيكفيها عن الطعام والشراب.

(١٨) — رُقَّة: هم الجماعة المختلطون سواء كانوا في سفر أم لا.

(١٩) — جرهم هو ابن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قال ابن إسحاق: وكان جرهم وأخوه قطورا أول من تكلم بالعربية عند تبلبل الألسن، وكان رئيس جرهم مضاض بن عمرو ورئيس قطورا السמידع، ويطلق على الجميع جرهم. وفي رواية عطاء بن السائب: وكانت جرهم يومئذ بوادي قريب من مكة، وقيل إن أصلهم من العمالقة.

(٢٠) — فرأوا طائراً عائفاً: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه.

(٢١) — فأرسلوا جرياً: أي رسولا، وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير. قيل سمي بذلك لأنه يجري مجرى مرسله أو موكله، أو لأنه يجري مسرعاً في حوائجه، وفي رواية إبراهيم بن نافع « فأرسلوا رسولا ».

جَرِيَيْنِ فَإِذَا هُم بِالْمَاءِ ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَاقْبَلُوا . قَالَ : وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ ، فَقَالُوا : أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ حَيْثُكَ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ وَلَكِنْ لَأَحَقُّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : قَالَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْأَنْسَ فَتَزَلُّوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَتَزَلُّوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ آيَاتٍ مِنْهُمْ ، وَشَبَّ الْعُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ (٢٣) مِنْهُمْ . وَأَنْفَسَهُمْ (٢٤) وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ ، فَلَمَّا أَذْرَكَ زَوْجَهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ . وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرْكَتَهُ (٢٥) فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ . فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ : خَرَجَ يَتَنَغَّى لَنَا (٢٦) ، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ (٢٧) وَهَيْئَتِهِمْ ، فَقَالَتْ : نَحْنُ بِشَرٍّ ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ (٢٨) ، قَالَ : فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَأَقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقُولِي

(٢٢) — قَالَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ : وَجَدَ ، صَادَفَ ، وَالْأَنْسُ ضِدُّ الْوَحْشَةِ .

(٢٣) — « وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ » : فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ لِسَانَ أُمِّهِ وَأَبِيهِ لَمْ يَكُنْ عَرَبِيًّا ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ أَفْصَحَ مِنْ نَظَرٍ بِالْعَرَبِيَّةِ .

(٢٤) — أَنْفَسَهُمْ : بَفَتْحِ الْفَاءِ وَالسِّينِ مِنَ النَّفَاسَةِ أَيْ كَثُرَتْ رَغْبَتُهُمْ فِيهِ . وَوَقَعَ عِنْدَ الْإِسْمَاعِيلِيِّ « وَأَنْفَسَهُمْ » بِغَيْرِ فَاءٍ مِنَ الْأَنْسِ .

(٢٥) — يُطَالِعُ تَرْكَتَهُ : أَيْ يَتَفَقَّدُ حَالَ مَا تَرَكَهُ هُنَاكَ ، وَكَانَ مَوْتَ هَاجِرٍ خِلَالَ زَوَاجِ إِسْمَاعِيلَ .. وَهَكَذَا يَسِرُّ اللَّهُ هَاجِرَ وَابْنِهَا الْمَاءِ وَالْأَنْسَ ، ثُمَّ طَوَّعَ لَهُمْ قَبِيلَةَ جَرَهُمْ حَيْثُ قَبِلُوا شَرْطَ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ حَقٌّ فِي مَاءِ زَمْزَمَ مَعَ أَنَّ مَعْظَمَ مَعَارِكِ الْعَرَبِ كَانَتْ مِنْ أَجْلِ الْمَاءِ ﴿ وَمَنْ يَثْقِ اللَّهُ بِجَعْلٍ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَخْتَسِبُ ﴾ .

(٢٦) — « يَتَنَغَّى لَنَا » : أَيْ يَطْلُبُ لَنَا الرِّزْقَ ، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ جَرِيرٍ : وَكَانَ عَيْشُ إِسْمَاعِيلَ الصَّيْدَ يَخْرُجُ فَيَتَصِيدُ .

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَتَضَلَّلُونَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًّا ...

(٢٧) — زَادَ فِي رِوَايَةِ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ : وَقَالَ : هَلْ عِنْدَكَ ضِيَاةٌ .

(٢٨) — فِي حَدِيثِ أَبِي جَهْمٍ « فَقَالَ لَهَا : لِمَ مِنْ مَنْزِلٍ ؟ قَالَتْ : لِأَنَّ اللَّهَ إِذْنٌ ، قَالَ : فَكَيْفَ عَيْشُكُمْ ؟

قَالَ : فَذَكَرْتُ جَهْدًا ، فَقَالَتْ : أَمَا لَطْعَامٌ فَلَا طَعَامَ ، وَأَمَا الشَّاءُ فَلَا تَحْلُبُ إِلَّا الْمَصْرَ أَيْ الشَّحْبَ ، وَأَمَا الْمَاءُ فَعَلَى مَا تَرَى مِنَ الْغَلْظِ .

لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ . فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آتَسَ شَيْئًا فَقَالَ : هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ ، قَالَ : فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ غَيْرَ عَتَبَةَ بَابِكَ^(٢٩) . قَالَ : ذَاكَ أَبِي ، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَطَلَّقْهَا . وَتَزَوَّجْ امْرَأَةً مِنْهُمْ أُخْرَى فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ . فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ فَقَالَتْ : خَرَجَ يَتَتَبَعُنِي لَنَا ، قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ ، وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ . فَقَالَتْ : نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ ، وَأَنْتِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَقَالَ : مَا طَعَامُكُمْ قَالَتْ : اللَّحْمُ ، قَالَ : فَمَا شَرَابُكُمْ ؟ قَالَتْ : الْمَاءُ ، قَالَ : اللَّهُمَّ^(٣٠) بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ . قَالَ : فَهُمَا لَا يَخْلُوا عَلَيْهِمَا^(٣١) أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ ، قَالَ : فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأْنِي عَلَيْهِ

(٢٩) — تغيير عتبة الباب كناية من كنايات الطلاق ، وذلك واضح من قول إسماعيل « ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك » .

قلت : والسبب الذي دعا إبراهيم عليه السلام إلى أمر ابنه بطلاق زوجته الأولى هو سخطها من قضاء الله وقدره الذي عبرت عنه بقولها : « نحن بشر » ، والمسلم كل أمره له خير مادام منقاداً لأمر الله جل وعلا ، وقد يكون الشر في الغنى ، ورسول الله ﷺ مات ودرعه مرهون عند يهودي ، وكان يمر عليه الهلال والهلalan فلا يوقد في بيته نار .. ثمة سبب آخر نوجزه في سوء استقبال زوجة إسماعيل للمضيف ، ومن أخص أخلاق إبراهيم الكرم وإقراء الضيف . والله أعلم .

(٣٠) — وفي رواية إبراهيم بن نافع « اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم » .. وجاء أيضاً في رواية إبراهيم بن نافع « بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ » وفيه حذف تقديره في طعام أهل مكة وشرابهم بركة .

(٣١) — خلوت بالشيء واختليت إذا لم أخلط به غيره . وفي حديث أبي جهم « ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه » . وزاد في حديثه — أي — أبو جهم — وكذا في حديث عطاء بن السائب نحوه : فقالت : « انزل رحمك الله فاطعم واشرب ، قال : إني لأستطيع النزول ، قالت : فإني أراك أشعث ، أفلا أغسل رأسك وأدهنه ؟ قال : بلى .. إلى آخر الحديث » .

السَّلَامَ وَمُرِيهِ يُثَبِّتُ عَتَبَةَ بَابِهِ . فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ : هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟
 قَالَتْ : نَعَمْ ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَسَأَلَنِي
 كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ ، قَالَ : فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، هُوَ يَقْرَأُ
 عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ^(٣٢) قَالَ : ذَاكَ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ ، أَمَرَنِي أَنْ
 أُمْسِكَكَ ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ^(٣٣) ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا^(٣٤) لَهُ
 تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيباً مِنْ زَمْزَمَ ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ ، وَالْوَلَدُ
 بِالْوَالِدِ^(٣٥) .

قَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ ، قَالَ : فَاصْنَعِي مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ ، قَالَ :
 وَتُعِينُنِي ؟ قَالَ : وَأُعِينُكَ . قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا ، وَأُشَارَ إِلَى أَكْمَةِ
 مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا . قَالَ : فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ
 يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ^(٣٦) جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ^(٣٧) فَوَضَعَهُ

(٣٢) — زاد في حديث أبي جهم « ولقد كنت عليّ كريمة وقد ازدادت علي كرامة فولدت لإسماعيل عشرة
 ذكور » .

(٣٣) — في قوله « ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك » دليل على أن إبراهيم عليه السلام ، كان يتردد
 على مكة ويזור ابنه بين كل فترة وأخرى ، وكان إسماعيل يعرف هيئة أبيه مع أنه كان طفلاً عندما تركه
 الخليل في مكة .

(٣٤) — النبل : السهم قبل أن يركب فيه نصل وريشة وهو السهم العربي .

(٣٥) — « فصنعوا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد » يعني من الاعتناق والمصافحة ونحو ذلك .

(٣٦) — جاء في رواية أبي جهم : « وأدخل الحجر في البيت وكان قبل ذلك زرباً لغنم إسماعيل ، وإنما بناه بحجارة
 بعضها على بعض ، ولم يجعل له سقفاً وجعل له باباً ، وحفر له بئراً عند بابه خزانة للبيت يلقي فيها
 ما يهدى للبيت » .

(٣٧) — جاء بهذا الحجر يعني المقام ، وفي رواية إبراهيم بن نافع : « حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل

الحجارة ، فقام على حجر المقام ، زاد في حديث عثمان : « ونزل عليه الركن والمقام ، فكان إبراهيم يقوم

على المقام يبني عليه ويرفع له إسماعيل ، فلما بلغ الموضع الذي فيه الركن وضعه يومئذ موضعه وأخذ =

لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَنْبِي وَإِسْمَاعِيلُ يُتَاوَلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ
أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ — قَالَ: فَجَعَلَا يَنْبِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا
يَقُولَانِ — رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ». انتهى رواية البخاري (٣٨).



المقام فجعله لاصقاً بالبيت ، فلما فرغ إبراهيم من بناء الكعبة جاء جبريل فأراه المناسك كلها ، ثم

قام إبراهيم على المقام فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجِيبُوا رِكَمَ فَوْقَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ تِلْكَ الْمَوَاقِفُ » .

(٣٨) — فتح الباري ، ٢٠٨/٧ — ٢١٥ ، مطبعة الباني الحلبي .

ثالثاً — بناء البيت

تبين لنا من حديث ابن عباس — الذي أخرجه البخاري في صحيحه — أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أمر إبراهيم عليه السلام بإسكان بعض من ذريته بواد غير ذي زرع — مكة المكرمة — ليقيموا الصلاة ، وليعبدوا الله في أرض مباركة طيبة تفتقر إلى دعاة يفرسون فيها بذور الإيمان .

ثم جاء أمر الله ببناء البيت ورفع قواعده ، وسارع إسماعيل عليه السلام بتلبية أمر الله . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٩) .

وبعد أن تم بناء البيت نودي إبراهيم :

﴿ وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (٤٠) .

(٣٩) — سورة البقرة ، الآيات : ١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩ .

(٤٠) — سورة الحج ، الآيات : ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ .

— وتقبل الله من خليله عليه السلام ، فجعل البيت الذي بناه قبلة للموحدين ، ومهوى أفئدة المؤمنين ، وملاذ الخائفين .. وضمن الله جلّ وعلا لسكان البيت الرزق والأمن . قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١).

وقال :

﴿ فَلْيَقْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤٢).

وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة : لاهجرة ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا وقال يوم الفتح فتح مكة إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ وَلَا يُلْتَقِطُ إِلَّا مِنْ عَرَفْهَا وَلَا يُخْتَلَى خِلَالَهَا فَقَالَ الْعَبَّاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْأَذْخَرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ فَقَالَ إِلَّا الْأَذْخَرَ « (٤٣) » .

— وتقبل الله من نبيه ورسوله إبراهيم عليه السلام فجعل ذريته أمة مسلمة ، وبعث في الأمة العربية رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس ، وكان محمد ﷺ هو هذا النبي الذي ختم الله به أنبياءه ورسله ، واختاره

(٤١) — سورة القصص ، الآية : ٥٧ .

(٤٢) — سورة قريش ، الآيات : ٣ و ٤ .

(٤٣) — رواه مسلم في صحيحه باب تحريم مكة . ٩/١٢٣ ، صحيح مسلم بشرح النووي : العضد : القطع .

والخلا : الرطب من الكلاً كالعشب والحشيش والهشيم .

الله من ولد إسماعيل عليه السلام . قال ﷺ :

« أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت » (٤٤).

— وتقبل الله من إبراهيم عليه السلام ، فأراه المناسك كلها ، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج ، فاستجاب الناس لهذا النداء ، وأخذوا من كل حذب ينسلون إلى بيت الله الحرام ركبانا ومشاة ، وكان الحج قبل الإسلام فكان العرب يحجون إلى بيت الله الحرام ، وأصبح الحج ركناً من أركان الإسلام الخمسة . قال رسول الله ﷺ : « بني الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » (٤٥).

وهانحن نرى المسلمين يتواردون إلى مكة من كل فج عميق ، وينطلقون في حشد لم يعرف ولن يعرف التاريخ له مثيلاً في العدد والنظام ، ووحدة المشاعر والهدف ، وجميعهم يرددون بصوت واحد :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

مئات الألوف من الناس يقفون يوم التاسع من ذي الحجة في كل عام في أرض عرفات .. يقفون وقد خلعوا ملابسهم إلا لباس الإحرام ، وأقبلوا على الله داعين ملبين .

وتتحرك هذه الجماهير المحتشدة كلها من عرفات قبل غروب الشمس ، كما تتحرك من مزدلفة بعد صلاة الفجر ، وكل شيء في هذه الشعائر يذكرها بإبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم أفضل الصلاة فعندما يطوفون بالبيت العتيق يتذكرون من بناه وكيف كان إبراهيم وإسماعيل يدوران حول البيت ويرددان « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

وعندما يسعون بين الصفا والمروة يتذكرون سعي هاجر الحزينة ، وهي تبحث

(٤٤) — أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٦٢/٥ طبعة الحلبي . وأخرج نحوه عن أبي أمامة (عن تفسير القاسمي

٢/٢٥٨) .

(٤٥) — متفق عليه واللفظ للبخاري .

عمن يغيثها وينقذ ابنها من الهلاك .

وعندما يشربون من زمزم يتذكرون كيف فجر الله هذا الماء ومن به على عبده
ونبيه إسماعيل عليه السلام .

وعند رمي جمرات العقبة يتذكرون كيف اعترض الشيطان إبراهيم عليه السلام
ليفتنه بمعصية أو يدخل على حجه شبهة وكيف رماه الخليل بالحجارة طرداً له وقطعاً
لأمله .

وعند ذبح الهدي ، يتذكرون إسماعيل الذبيح وكيف فداه الله بكبش عظيم .
إن الحج بمناسكه وأركانه يتجلى فيه منتهى الانقياد لله ، وغاية الاستسلام
والاذعان لله ، وفيه يجدد المسلمون العهد من أجل أن يعودوا خير أمة أخرجت
للناس .

قال الأستاذ أبو الحسن علي الحسيني الندوي :

« والحج بمناسكه وأركانه ، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة ، وامتنال للأمر المجرد ،
وسعي وراء الأمر ، وتلبية وإجابة الطلب ، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى ، وعرفات
والمزدلفة ، ثم منى ومكة : يقيم ويرحل ، ويمكث وينتقل ، ويخيم ويقلع ، إنما هو طوع
إشارة ورهين أمر ، ليست له إرادة ولا حكم ، وليس له اختيار ولا حرية ، ينزل بمنى
فلا يلبث أن يؤمر بالانتقال إلى عرفات ، من غير أن يقف بالمزدلفة ، ويقف
بعرفات ، ويظل سحابة النهار مشغولاً بالدعاء والعبادة ، وتحدثه نفسه بالملكث بعد
الغروب ، ليستجم ويستريح ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالانتقال إلى المزدلفة ،
ويقضي حياته محافظاً على الصلوات في وقتها ، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفة لأنه
عبد لربه ، ليس عبداً لصلاته وعاداته ، فلا يصلّيها إلا بالمزدلفة جمعاً مع العشاء ،
وتطيب له الإقامة في المزدلفة ، فيريد أن يطيلها ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر
بالانتقال إلى منى .

وهكذا كانت حياة إبراهيم وحياة الأنبياء، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين
والمؤمنين، نزول وارتحال، ومكث وانتقال، وفقد وحل، ونقض وإبرام، ووصل
وهجر، ولا خضوع لعادة، ولا إجابة لشهوة ولا اندفاع للهوى^(٤٦).



(٤٦) — الأركان الأربعة، أبو الحسن علي الحسيني الندوي. ص ٢٣٠ و ٢٣١، دار الفتح بيروت.

المبحث السابع

قصة الذبيح

أولاً - قصة الذبيح.

ثانياً - من هو الذبيح.

١ - محمد بن كعب القرظي.

٢ - السيوطي.

٣ - محمد الأمين الشنقيطي.

٤ - ابن القيم.

٥ - قرائن أخرى.

ثالثاً - الرأي الآخر.

أولاً — قصة الذبيح

رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه ، الذي هو بكره ووحيدده ، ورؤيا الأنبياء وحي^(٤٧) ، فسارع الوالد إلى إخبار ابنه إسماعيل^(٤٨) عليه السلام بأمر ربه ، ليكون أهون عليه ، وليختبر صبره وجلده ، فما كان من الولد البار بأبيه ، المستسلم لأمر ربه إلا أن قال :

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾^(٤٩).

— ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ : إن القلم ليقف حيران أمام هذه العبارة ... ماذا يكتب في تصويرها وبلاغتها وتقريبها من نفوس القارئ !!

— ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ : هذا هو الإسلام : انقياد ، واستسلام ، وطاعة ، وامثال ،

(٤٧) — أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رؤيا الأنبياء وحي » ، وأخرجه البخاري وغيره من قول عبيد بن عمير .

عن فتح القدير : ٤/٤٠٦ .

ومن الأدلة التي استدلت بها العلماء على أن رؤيا الأنبياء وحي قول الله تعالى على لسان إبراهيم :

﴿ يَا بَنِي إِدْرِي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِي أَذْبَحُكَ ﴾ .

ورد إسماعيل : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي مارآه في المنام كان أمراً من الله سبحانه وتعالى .

وقول عائشة أم المؤمنين في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه : « أول ما بُدئ به رسول

الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .. إلى

آخر الحديث » فتح الباري : ١/٢٥ والروض الأنف : ٢/١٩٣ .

(٤٨) — الذي نراه أن الذبيح إسماعيل وليس إسحاق ، وسنبسط أدلتنا فيما بعد .

(٤٩) — سورة الصافات ، الآية : ١٠٢ .

وتنفيذ ... ولكن ليس للملوك والجبابرة ، بل لله وحده ولرسله عليهم أفضل الصلاة والتسليم .

— ﴿ افعل ماتؤمر ﴾ ياأبت الخليم الأواه المنيب ، إن تنفيذ أمر الله أهم من حياتي في هذه الدنيا الفانية ، وسوف لا تراني ممتعضاً ولا متردداً ، بل سأكون صابراً محتسب الأجر عند الله .

— ﴿ افعل ماتؤمر ﴾ ، فالله جلت قدرته اختارنا لنكون حملة رسالة ، ونجوم هدى في أرضه ، وشموساً تبدد كل ظلام ، ولن نتردد في بذل دمائنا وأموالنا وكل ما نملك في سبيل الله .

— إن كثيراً من الناس يستشهدون في ساحات الوغى ، ويضحون في سبيل الله بالمال والولد ، ولكن عمل إبراهيم وإسماعيل لا يشبه أية تضحية أو استشهاد .. انظر للوالد الحنون يقول لابنه بكل رقة وشفقة : ﴿ يا بني !! إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ ، ويرد الولد بكل حب وتقدير : ﴿ ياأبت !! افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

ولو قال لابنه : اذهب للجهاد في سبيل الله وأرجو أن يشرفني الله بقتلك .. لو قال مثل هذا القول لكان الأمر ، لأن أعداء الله هم الذين سيقتلونه ، أما هنا فالوالد المؤمن الداعية هو الذي سيقتل ابنه المؤمن الداعية .. سيقتله ذبحاً وهو الذي لم يقارف ذنباً أو يفعل ما يوجب إقامة الحد عليه !! .

ولقد كانت حياة إسماعيل كلها طاعة وامثال لكل ما يأمر به أبوه ، وكان يعلم أن طاعته طاعة لله تعالى ، فعندما أخبر زوجه أن تقول له : غير عتبة بيتك ، سارع إلى طلاقها ، ولم يمنعه من تنفيذ الأمر حبه لها ، أو حرصه على مصلحة أولادها ، وعندما أمره الخليل أن يساعده في بناء الكعبة سارع أيضاً إلى مساعدة أبيه دون كلل ولا ملل .

ولن ننسى وكيف ننسى أن إسماعيل نشأ وترعرع في بيت امرأة كانت ثقتها بالله واستسلامها لأمره أكبر وأعظم من الوصف .. وقد رأينا فيما مضى أنها عندما علمت أن الله أمر إبراهيم بتركها مع ابنها في مكان ليس فيه مأوى ولا أمن ، بل وليس فيه طعام ولا ماء كان ردها :

« إذن لا يضيعنا » .

إذن هذا هو إسماعيل الذي قال لأبيه :

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ .

وينتقل إبراهيم الخليل مع ابنه من الحوار والموافقة النظرية إلى التنفيذ والتطبيق العملي . قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ . أسلما — أي استسلم الوالد وابنه — ، فلم يسأل إبراهيم ربه عن سر هذا الأمر العجيب ، وكيف يذبح بكره ووحيدته الذي انتظره طويلاً ، وجاءه بعد أن اشتعل رأسه شيباً ، وبلغ من الكبر عتياً ، ثم يذبحه بعد أن أصبح شاباً وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل .

ولم يقل إسماعيل لأبيه : كيف ولماذا تذبحني ، وأنا الذي لم أعصك طوال حياتي ، أما يكفيك أنك ألقيتني في واد ليس فيه ماء ولا يزرع وأنا طفل في حضن أمي ، وتركنا طعاماً للوحوش !! .

معاذ الله أن يقول شيئاً من هذا لأنه مؤمن ويعلم أن أباه ينفذ أوامر الله في كل عمل يفعله ، ومن أخص صفات المسلم الرضا بقضاء الله وقدره .

— بدأ إبراهيم تنفيذ أمر الله ، فصرع ابنه ، وأوثق قيده — مع أنه لم يتحرك طواعية من نفسه — ، وأمسك السكين ثم وضعها على حلقه وأمرها فوق عنقه .. وفي هذه اللحظات سمع الخليل نداء ربه :

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (٥٠) .

فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض كبير فذبحه ، واقتدى به ابنه وفلذة كبده ، وصارت الأضحية سنة من سنن الإسلام ، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الحرام .

(٥٠) — سورة الصافات ، الآيات : ١٠٤ إلى ١٠٧ .

إن هذا والله هو البلاء المبين . يقول ابن القيم رحمه الله :

« ... وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ، ووهبه له ، تعلق شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذ خليلاً ، والخُلَّة مَنْصِبٌ يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة ، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها ، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد ، جاءت غَيْرَةُ الخُلَّة تنزعها من قلب الخليل ، فأمره بذبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحه ، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد ، خَلَصَتِ الخُلَّة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة ، إذا كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه ، فقد حَصَلَ المقصود ، فَنَسِيَ الأمر وفِدَى الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا ، وحصل مراد الرب » (٥١) هـ .

— ﴿ كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ﴾ .

أي يصرف الله عمن أطاعه المكاره والشدائد ، ويجعل لهم من أمره فرجاً ومخرجاً . قال تعالى :

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ (٥٢) .

وجزاء الله لعباده المحسنين يكون بعد ابتلائه لهم ، وبعد صبرهم على هذا الابتلاء ، وثباتهم على الحق ... وبعد هذه الابتلاءات المتتالية لإبراهيم وولده جعل الله في ذريتهما النبوة والحكمة ، وأثنى الله على إسماعيل ووصفه بصدق الوعد . قال تعالى :

﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولاً نبياً ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً ﴾ (٥٣) .

(٥١) — زاد المعاد ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط : ٧٤/١ .

(٥٢) — سورة الطلاق ، الآية : ٢ .

(٥٣) — سورة مريم ، الآيات : ٥٤ و ٥٥ .

لقد كان عليه السلام ﷺ رسولاً نبياً ﷻ ، أرسله الله إلى أهل تلك الناحية من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن ، وأكرمه الله تعالى فجعل من نسله خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم .

وقال تعالى :

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإناهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر إسماعيل وإسحاق والكفل وكل من الأخيار ﴾ (٥٤) .

وقال تعالى :

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ (٥٥) .



(٥٤) — سورة ص ، الآيات : من ٤٥ حتى ٤٨ .

(٥٥) — سورة النساء ، الآية : ١٦٣ .

ثانياً — من هو الذبيح ؟

اختلف أهل العلم من سلف هذه الأمة في الذبيح : هل هو إسحاق ، أم إسماعيل ١٩ . وبعد أن قرأت وتأملت أدلة الطرفين ارتاحت نفسي إلى أن الذبيح إسماعيل ، وسوف استعرض فيما يلي طائفة من أدلة الذين قالوا بهذا الرأي :

٩ — محمد بن كعب القرظي^(٥٦) : قال ابن إسحاق : سمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول : إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل ، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ ويقول الله تعالى :

﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل . قال ابن إسحاق : سمعته يقول ذلك كثيراً .

وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي

(٥٦) — هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي من حلفاء الأوس ، وكان أبوه من سبي قريظة سكن الكوفة ثم المدينة . روى عن عدد من الصحابة . قال ابن سعد كان ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً . وقال العجلي : مدني تابعي ثقة رجل صالح عالم بالقرآن . وقال ابن حبان : كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً وكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم سنة ثمان عشرة وأرخه أبو بكر بن أبي شيبة وغير واحد سنة ثمان ومائة وقال يعقوب بن شيبة وغيره مات سنة سبع عشرة وهو ابن ثمان وسبعين سنة . عن تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني .

أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك. قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز. فقال له عمر: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه فقال: إسماعيل، والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبائكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهما. والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله عز وجل (٥٧).

٢ — السيوطي: قال السيوطي في «الإكليل»: «واستدل بقوله تعالى بعد ﴿وبشرناه بإسحاق﴾ من قال إن الذبيح إسماعيل. وهو الذي رجحه جماعة. واحتجوا بأدلة. منها وصفه بالحلم وذكر البشارة بإسحاق بعده، والبشارة بيعقوب من وراء إسحاق، وغير ذلك. وهي أمور ظنية لا قطعية. ثم قال: وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضي القطع أو يقرب منه — ولم أر من سبقني إلى استنباطه — وهو أن البشارة وقعت مرتين. مرة في قوله: ﴿إني ذاهب إلى ربّ سيدين. ربّ هب لي من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ فهذه الآية قاطعة في أن هذا المبشر به هو الذبيح. ومرة في قوله:

﴿وامراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ الآية. فقد صرح فيها أن المبشر به إسحاق، ولم يكن بسؤال من إبراهيم، بل قالت امرأته إنها عجوز، وإنه شيخ. وكان ذلك في الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو في آخر أمره. أما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام، حين كان سنه لا يستغرب فيه الولد، ولذلك سأله.

(٥٧) — تفسير ابن كثير: ٤/١٨، مطبعة الباني الحلبي.

فعلمنا بذلك أنهما بشارتان في وقتين ، بغلامين . أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحاق صريحاً . والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح^(٥٨) « اهـ .

٣ — محمد الأمين الشنقيطي : للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله كلام مهم في هذه المسألة ، جمع فيه خلاصة أقوال من سبقه من العلماء المحققين : كابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير . قال رحمه الله :

« اعلم وفقني الله وإياك . أن القرآن العظيم قد دل في موضعين ، على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق أحدهما في الصافات ، والثاني في هود .

أما دلالة آيات الصافات على ذلك فهي واضحة جداً من سياق الآيات ، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيم :

﴿ وقال إني ذاهب إلى ربّ سيّدين ربّ هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حلیم فلما بلغ معه السعي قال ، يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يابّت أفعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين ﴾ . قال بعد ذلك عاطفاً على البشارة الأولى : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ فدل ذلك على أن البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه : فبشرناه بإسحاق ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً : وبشرناه بإسحاق فهو تكرار لافائدة فيه ينزه عنه كلام الله ، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أولاً الذي فدى بالذبح العظيم ، هو إسماعيل ، وأن البشارة بإسحاق نص الله عليها مستقلة بعد ذلك .

(٥٨) — تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ، تأليف : محمد جمال الدين القاسمي : ٥٠٥٢/١٤ حتى

ومعلوم في اللغة العربية ، أن العطف يقتضي المغايرة ، فأية الصفات هذه دليل واضح للمنصف على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق ، ويستأنس لهذا بأن المواضع التي ذكر فيها إسحاق يقيناً عبر عنه في كلها بالعلم لا بالحلم ، وهذا الغلام الذبيح وصفه بالحلم لا العلم .

وأما الموضع الثاني الدال على ذلك الذي ذكرنا أنه في سورة هود فهو قوله تعالى :

﴿ وَاَمْرَاتِهِ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبِشْرَانَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ ، لأن رسل الله من الملائكة بشرتها بإسحاق ، وأن إسحاق يلد يعقوب ، فكيف بعثل أن يؤمر إبراهيم بذبحه ، وهو صغير ، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب .
فهذه الآية أيضاً دليل واضح على ما ذكرنا ، فلا ينبغي للمنصف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك . والعلم عند الله تعالى « (٥٩) » .

٤ — ابن القيم : وكان ابن القيم رحمه الله قد قال كلاماً شبيهاً بالكلام الذي أورده الشنقيطي في تفسيره — أضواء البيان — وفيه الزيادة التالية :

« فإن قيل : لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان « يعقوب » مجروراً (*) عطفاً على إسحاق ، فكانت القراءة [ومن وراء إسحاق يعقوب] أي : ويعقوب من وراء إسحاق . قيل : لا يمنع الرفع أن يكون يعقوب مبشراً به ، لأن البشارة قول مخصوص ، وهي أول خبر سار صادق . وقوله تعالى :

﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود ، فتكون بشارة ، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية . ولما كانت البشارة قولاً ، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول ، كأن المعنى : وقلنا لها : من وراء إسحاق يعقوب ، والقائل إذا قال : بشرت فلاناً بقدوم أخيه وثقله (٦٠) في أثره ، لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين

(٥٩) — أضواء البيان : ٦ / ٦٩١ .

(٦٠) — ثقله : الثقل بفتح الحين : متاع المسافر وحشمه .

جميعاً. هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه البتة، ثم يُضعف الجر أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد وَمِنْ بعده عمرو، ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجر، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجر والمجرور» (٦١) اهـ.

٥ — قرائن أخرى: هناك قرائن تشير إلى أن الذبيح إسماعيل وليس إسحاق نذكر منها مايلي:

— وصف الله إسماعيل بالصبر دون إسحاق. قال تعالى: ﴿وإسماعيل وإبراهيم واليسع وإذا الكفل كل من الصابرين﴾، كما وصفه تعالى بصدق الوعد: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا﴾.

ووصفه بالصبر يعني صبره على الذبح، كما أن وصفه بصدق الوعد يعني قوله لأبيه:

﴿افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.

— كان إسماعيل أكبر من إسحاق. قال تعالى:

﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾، وإبراهيم عليه السلام أمره الله بذبح وحيدته وبكره، فيكون إسماعيل.

— قلنا فيما مضى أن مكان الذبح وزمانه اتصل بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، بينما كان إسحاق في بلاد الشام.

— ابتعث الله إسماعيل لأمة أراد الله لها أن تحافظ على أهم ما امتاز به إسماعيل ومن بعده محمد صلى الله عليه وسلم ألا وهو الانصياع الكامل والانقياد التام لأمر الله سبحانه وتعالى.

(٦١) — زاد المعاد في هدي خير العباد: ٧٢/١، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

(*) — «مجرور» هكذا وردت في الأصل والصواب «مجروراً».

ثالثاً — الرأي الآخر :

والذين قالوا بأن الذبيح إسحاق اعتمدوا على روايات منكرة لم يصح سندها ولا متنها . قال ابن كثير رحمه الله :

« وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، وإنما أخذوه — والله أعلم — من كعب الأخبار ، أو من صحف أهل الكتاب ، وليس في ذلك صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ، ولا يفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل » (٦٢).

وقال في موضع آخر :

« لما أسلم كعب الأخبار في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتب قديماً فرمما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها ، وليس لهذه الأمة — والله أعلم — حاجة إلى حرف واحد مما عنده » (٦٣).

وقال ابن القيم رحمه الله :

« وإسماعيل : هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : هذا القول إنما هو متلقى عن أهل

(٦٢) — البداية والنهاية ، لابن كثير : ١٥٩/١ .

(٦٣) — تفسير ابن كثير : ١٧/٤ .

الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره ، وفي لفظ : وحيدته ، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده^(٦٤) ، والذي غر أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم : اذبح ابنك إسحاق ، قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : اذبح بكرك ووحيدك ، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب ، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله^(٦٥) اهـ .



(٦٤) — جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من التوراة :

— فقال الرب : خذ ابنك ووحيدك الذي تحبه « إسحاق » واذهب إلى أرض الموريا ، وأصعده محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك .

وفي الإصحاح — ١٦ — جاء الحديث عن تزويج سارة لإبراهيم من هاجر لأن الرب أمسكها عن الولادة ، ثم ولدت إسماعيل ، وكان عمر إبراهيم ٨٦ سنة .

وجاء في الإصحاح الحادي والعشرين أنه عندما ولد له إسحاق كان عمره مائة سنة .

عن قصص الأنبياء ، ص ١٠٢

(٦٥) — زاد المعاد ، ١/٧٢ ، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط .

المبحث الثامن

عن فضائل إبراهيم عليه السلام

- أولاً — كان إبراهيم أمة .
- ثانياً — ملة إبراهيم .
- ثالثاً — واتخذ الله إبراهيم خليلاً .
- رابعاً — أحاديث نبوية في فضائل إبراهيم .
- خامساً — أهمية بلاد الشام .

من خلال عرضنا لسيرة إبراهيم عليه السلام ، بيننا جملة من فضائله ومكارم أخلاقه ، واستخرجنا عبراً وعظات كثيرة من قوة إيمانه وشدة صبره ، ومع ذلك مايزال هناك مجال واسع للحديث عن جلائل أعماله نذكر منها مايلي :

أولاً — كان إبراهيم أمة :

قال تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِلْعُمَةِ اجْتِبَاءً وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١).

— ﴿ أمة ﴾ أي يعدل وحده جماعة فيما رزقه الله من إيمان وثبات وشيم .

— ﴿ قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ : أي قائماً بأمر الله تعالى ، مائلاً إلى ملة الإسلام ميلاً لايزول عنه .

قال ابن القيم رحمه الله :

« إن الله أثنى على إبراهيم خليله بقوله ﴿ إن إبراهيم كان أمة — الآية ﴾ فهذه أربع أنواع من الثناء ، افتتاحها بأنه ﴿ أمة ﴾ وهو القدوة الذي يؤتم به . قال ابن مسعود : [الأمة : المعلم للخير] وهي فعلة — بضم الفاء — من الائتمام كالقدوة ، وهو الذي يقتدى به . والفرق بين [الأمة] و [الإمام] من وجهين :

أحدهما : أن الإمام كل ما يؤتم به ، سواء كان بقصده وشعوره أولاً ، ومنه سمي الطريق إماماً . كقوله تعالى ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهم لبإمام مبين ﴾ أي بطريق واضح لا يخفى على السالك . ولا يسمى الطريق أمة .

(١) — سورة النحل ، الآيات : ١٢٠ و ١٢١ و ١٢٢ .

الثاني: أن ﴿ الأمة ﴾ فيه زيادة معنى . وهو الذي جمع صفات الكمال في العلم والعمل ، وهو الذي بقي فيها فرداً وحده ، فهو الجامع لحصال تفرقت في غيره ، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه ، وتفرقها أو عدمها في غيره . ولفظ [الأمة] يشعر بهذا المعنى ، لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها ، وكذلك ضم أوله . فإن الضمة من الواو ، ومخرجها فيضم عند النطق بها . وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة . ومنه الحديث : [ان زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده] فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم ، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد .

الثاني: قوله ﴿ قانتاً ﴾ قال ابن مسعود : [القانت] المطيع . والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة .

الثالث: قوله ﴿ حنيفاً ﴾ والحنيف : المقبل على الله .

ويلزم من هذا المعنى ميله عما سواه ، فالميل لازم معنى الحنيف ، لا أنه موضوعه لغة .

الرابع: قوله ﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان : الإقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها ، وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب . فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الثلاثة .

والمقصود : أنه سبحانه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم ، والعمل بموجبه ، ودعوة الخلق إليه ^(٢) » اهـ .

— أجل لقد كان إبراهيم عليه السلام أمة في إيمانه وعبوديته لله وشكره على نعمه .

— أمة في ثباته على الحق ، وصبره على أذى قومه وظلمهم .

— أمة في حلمه ، وسعة صدره ، ولين جانبه ، وحسن خلقه ، وقوة حجته ، وشدة ذكائه .

(٢) — مفتاح دار السعادة في الوجه ١٤٧ من فضل العلم (عن فتح المجيد ص ٥٨) .

- أمة في سخائه وكرمه ، وإنفاقه على من يعرف ومن لا يعرف .
- أمة في تمام تجرده ، وشدة إذعانه وانقياده لأمر الله تعالى في جميع أموره .
- أمة في تبرئه من المشركين ، وعدم موالاتهم ، وتمييزه عنهم .

ثانياً — ملة إبراهيم :

اتفق اليهود والنصارى — رغم ما هم عليه من شرك وضلالة — والمسلمون على أن إبراهيم عليه السلام إمام الهدى والمهتدين ، ومن هنا جاء زعم اليهود بأن إبراهيم كان يهودياً ، كما جاء زعم النصارى بأن إبراهيم كان نصرانياً ، ولم يتفق أهل الكتاب مع المسلمين على علو مكانة نبي من الأنبياء غير إبراهيم الخليل ، وحتى خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم لا يعترف اليهود ولا النصارى بنبوته ، وهذه ميزة انفرد بها إبراهيم عليه السلام عن غيره من الأنبياء والمرسلين .

والحق الذي لا خلاف فيه أن إبراهيم الخليل بريء من شرك اليهود والنصارى كبراءته من عقيدة ودين أبيه وقومه . قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٣).

وقال :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٤).

أي وما كان من اليهود الذين أشركوا بالله عندما زعموا بأن عزير ابن الله ، ولا من النصارى الذين أشركوا بالله عندما زعموا بأن المسيح ابن الله .

قال تعالى :

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ

(٣) — سورة آل عمران ، الآية : ٦٧ .

(٤) — سورة البقرة ، الآية : ١٣٥ .

نصارى ؟ قل أنعم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كم شهادة عنده من الله . وما الله بغافل عما تعملون ﴿٥﴾ .

وعندما نفى الحق جلّ وعلا اليهودية والنصرانية عن إبراهيم عليه السلام أكد في مواضع كثيرة أنه كان حنيفاً مسلماً . قال تعالى :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ ﴿٦﴾ .

وقال :

﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ .

ويكفي خليل الرحمن مكرمة وفضلاً أن الله أمر المصطفى ﷺ باتباع ملة إبراهيم . قال تعالى مخاطباً نبيه :

﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ﴿٧﴾ .

واتخذه سبحانه وتعالى قدوة طيبة لكل من أسلم وجهه لله . قال تعالى :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله .. ﴾ ﴿٨﴾ .

وكل من رغب عن ملة إبراهيم فقد سفه نفسه ، وأشرك بالله وضل عن سبيله .

قال تعالى :

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في

(٥) — سورة البقرة ، الآيتان : ١٤٠ و ١٤١ .

(٦) — سورة آل عمران ، الآية : ٦٧ .

(٧) — سورة النحل ، الآية : ١٢٣ .

(٨) — سورة الممتحنة ، الآية : ٤ .

الآخرة لمن الصالحين ﴿٩﴾

سفه نفسه : أي امتنها واستخف بها ، كاليهود والنصارى والوثنيين من العرب ، وبين الله جلّ وعلا في الآيات التي تلي هذه الآية أن إبراهيم نال هذه المكانة الرفيعة لأنه أسلم أمره كله لرب العالمين ، واستقام على الإسلام يفديه بنفسه وماله ، ووصى بهذه العقيدة أبناءه من بعده . قال تعالى :

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ؟ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٠) .

والقضية عند الله ليست قضية نسب أو قبيلة ، وإنما هي قضية دين وعقيدة .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١) .

فكل من اتبع إبراهيم في القديم والحديث من حقه أن يتسمى إليه ويعتز به ، وهو باتباعه له أولى الناس به ، وقد رأينا فيما مضى أنه عليه السلام تبرا من أبيه وأقرب الناس منه ، فكيف لايتبرا ممن هم على عقيدة أبيه وقومه في هذا العصر وكل عصر ؟ !

كيف لايتبرا منهم والله جلّ وعلا أخبره بأن الظالمين من أبنائه ليسوا أئمة ولا ينالهم عهده ، بل كيف لايتبرا منهم وهو القائل :

﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

(٩) — سورة البقرة ، الآية : ١٣٠ .

(١٠) — سورة البقرة ، الآيتان : ١٣٢ و ١٣٣ .

(١١) — سورة آل عمران ، الآية : ٦٨ .

ثالثاً — واتخذ الله إبراهيم خليلاً :

قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ۝ ﴾^(١٢).

الحلة : هي غاية المحبة ، وسمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته ، كما قال بعضهم :

قد تَخَلَّلَتْ مَسَلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلاً

ولم ينل هذه المنزلة إلا إبراهيم عليه السلام ، والمصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« أيها الناس إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » . وقال أيضاً في آخر خطبة خطبها :

« أيها الناس لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » .

وأخرج البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون قال : إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم إبراهيم^(١٣).

رابعاً — أحاديث نبوية في فضائل إبراهيم :

١ — عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال :
« إنكم تحشرون حفاة عراة غرلاً ، ثم قرأ ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا

(١٢) — سورة النساء ، الآية : ١٢٥ .

(١٣) — البداية والنهاية لابن كثير : ١/١٦٩ .

إنا كنا فاعلين». وأول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول أصحابي أصحابي، فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿وكنتم عليهم شهداء مادمت فيهم — إلى قوله — الحكيم﴾.

وروى البيهقي من وجه آخر عن ابن عباس مرفوعاً «أول من يكسى إبراهيم حلة من الجنة، ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش، ويؤتى بي فأكسى حلة لا يقوم لها البشر» (١٤).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني:

«ويقال إن الحكمة في خصوصية إبراهيم بذلك لكونه ألقى في النار عرباناً، وقيل لأنه أول من لبس السراويل».

٢ — عن أبي هريرة رضي الله عنه، قيل: «يارسول الله، من أكرم الناس؟ قال أتقاهم. فقالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله... إلى آخر الحديث».

وفي رواية أخرى لأبي هريرة أخرجه البخاري في صحيحه. قال: قيل للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: أكرمهم أتقاهم. قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك. قال فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله.. إلى آخر الحديث (١٥).

— الجواب الأول — أكرم الناس يوسف — من جهة الشرف بالأعمال الصالحة، والثاني من جهة الشرف بالنسب الصالح.

٣ — أخرج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك حديثاً طويلاً عن الإسراء والمعراج جاء فيه:

(١٤) — حديث ابن عباس أخرجه البخاري في صحيحه، ورواية البيهقي ذكرها الحافظ في فتحه: ٧/١٩٧.

(١٥) — أخرجهما البخاري في صحيحه: فتح الباري ١٩٨ و ٧/٢٢٥ الحلبي.

« .. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعثَ إليه ؟ قال : قد بُعثَ إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور^(١٦) ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه .. »^(١٧).

وفي رواية أخرى أخرجها مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في الإسراء: « ... ورأيت إبراهيم عليه السلام ، وأنا أشبه ولده .. » .

وفي رواية أخرجها البخاري في صحيحه عن مالك بن صعصعة أن إبراهيم قال لنبينا عليهما أفضل الصلاة والتسليم : « مرحباً بك من ابن نبي .. »^(١٨).

والشاهد في ذلك كله أن إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة ، أي أفضل من جميع أنبياء الله الذين رآهم رسول الله ﷺ في رحلته — أي الإسراء والمعراج — .

٤ — مر معنا أن رسول الله ﷺ رد على الذين زعموا بأن إبراهيم شك بالله قبل أن يؤمن فقال :

« نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَوَمَّن قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ »^(١٩).

وبيننا — فيما مضى — أن معنى حديث رسول الله ﷺ : لو شك إبراهيم لكنا أحق بالشك منه ، ونحن لم نشك فإذن لم يشك إبراهيم .

٥ — عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ يُعوّذُ الحسن والحسين ،

(١٦) — مختصر صحيح مسلم للمنزري ، باب الإسراء بالنبي ١/٢٧ .

(١٧) — البيت المعمور في السماء السابعة كما جاء في رواية مسلم عن أنس والبخاري عن مالك بن صعصعة ، أما الروايات الأخرى التي تتحدث عن شكل هذا البيت فليست صحيحة .

(١٨) — أخرجاه — أي البخاري ومسلم — عن زاد المسير : ٨/٤٦ .

(١٩) — فتح الباري : ٧/٢٢٤ . واللفظ للبخاري .

ويقول : إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق ، أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة (٢٠) .

٦ — عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا خير البرية ! فقال رسول الله ﷺ : « ذاك إبراهيم عليه السلام » (٢١) .

٧ — عن عمرو بن سليم الزرقي قال : أخبرني أبو حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا يا رسول الله ، كيف نصلي عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

وفي رواية أخرى أخرجه البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » (٢٢) .

وصلاة الله : أي ثناؤه على نبيه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة : الدعاء .

وهذا تكريم من الله لنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام ، فالمسلمون يدعون الله لـ كما يدعونه لمحمد عليهما أفضل الصلاة والتسليم ، وتشكر هذه الصلاة والأدعية خمس أوقات في كل يوم .

٨ — عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت ، يدخل حتى أمر بها فمحييت ، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام « فقال : قاتلهم الله ، والله إن استقسما بالأزلام قط » .

والأزلام : القداح يقتسمون بها ، وروى الطبري من طريق سعيد بن جبير قال :

(٢٠) — فتح الباري : ٧/٢٢١ . الهوام : الدواب ذوات السموم ، واللامة : كل داء وآفة تلم بالإنسان من جرب وخيل .

(٢١) — مختصر صحيح مسلم للمنزدي : ٢/١٨٥ .

(٢٢) — فتح الباري : ٧/٢٢٠ و ١٠/١٥٢ .

وفي رواية أخرى لابن عباس أن النبي ﷺ قال :
« أَمَا لَهُمْ فَقَدْ سَمِعُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ ، هَذَا إِبْرَاهِيمُ مُصَوَّرٌ
فَمَالَهُ يَسْتَقْسِمُ ؟ » (٢٣) .

إن استقسما : إن نافية : أي والله ما استقسما بالأزلام قط .

٩ — عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اختتن إبراهيم عليه
السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم » .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني :

« وقد ثبت لإبراهيم عليه السلام أوليات أخرى كثيرة : منها أنه أول من ضاف
لضيف ، وقص الشارب واختتن ورأى الشيب وغير ذلك » (٢٤) .

وقد أوضحنا عند بداية حديثنا عن إبراهيم أن سبب اختنانه بالقدوم : سرعة
استجابته وتنفيذه لأوامر الله سبحانه وتعالى ، ولو كان ذلك على حساب جسمه
وصحته ، أما قص الشارب وغيره ففيها دليل على أنه كان يعطي لكل حقه .

ومما يجدر ذكره أن الأحاديث التي دلت على أن إبراهيم عليه السلام خير البرية ،
وأكرم الناس ، وأول من يكسى يوم القيامة وما إلى ذلك . فإن هذه الأحاديث لاتعني
أنه أفضل من نبينا محمد ﷺ . قال الإمام النووي رحمه الله :

« قال العلماء إنما قال ﷺ هذا — أي أن إبراهيم خير البرية — تواضعاً واحتراماً
لإبراهيم ﷺ لخلته وأبوتيه ، وإلا فنبينا أفضل كما قال ﷺ أنا سيد ولد آدم ولم يقصد
به الافتخار ولا التطاول على من تقدمه بل قاله بياناً لما أمر ببيانه وتبليغه ولهذا قال
ﷺ ولا فخر لينفي ما قد يتطرق إلى بعض الأفهام السخيفة » (٢٥) .

(٢٣) — الحديثان أخرجهما البخاري في صحيحه ، فتح الباري ١٩٧ و ٧/١٩٨ .

(٢٤) — حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في صحيحه ، فتح الباري : ٧/١٩٩ .

(٢٥) — صحيح مسلم بشرح النووي ، الحاشية ١٥/١٢١ . دار الفكر ، بيروت .

وقال ابن كثير رحمه الله :

« وهذا كله لا ينافي فيما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة^(٢٦) وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم . ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أمر المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة رغبه قال : قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك » قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد » وقال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ قالوا وفى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه ، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار^(٢٧) .

خامساً — أهمية بلاد الشام

رأينا في الصفحات الماضية من هذا البحث كيف تحلى إبراهيم الخليل عن قومه ، عندما أعرضوا عن دعوته ولم يعد ينفع فيهم الوعظ ولا الإرشاد ، وخرج من وطنه مهاجراً في سبيل الله ، ولم يتزود في رحلته المضنية الشاقة إلا بتقوى الله تعالى وحسن طاعته .

وفي مصر ابتلاه الله ، فكانت قصة سارة مع طاغوتها ، غير أن ربه لم يتخل عنه في ساعة الضيق ، ففرج كربه وصان عرضه ، وبعد حين من الزمن عادت المتاعب إلى إبراهيم عليه السلام ، فبات غير آمن على نفسه من حسد الحاسدين وكيد المجرمين ، فاضطر إلى مغادرة مصر ، وعاد إلى أرض التيمن — أي القدس وما والاها

(٢٦) — أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، كتاب الفضل ، مختصر صحيح مسلم : ٢/١٦٢ .

(٢٧) — البداية والنهاية ، ١/١٧١ .

وفي أرض القدس شعر إبراهيم عليه السلام براحة ما كان يشعر بها في بابل أو في مصر ، وفوق ذلك فلقد فتح الله عليه ، فملك الأراضي الواسعة ، والأنعام الكثيرة ، والأموال التي لا تحصى ، وأتم الله فضله على عبده ورسوله إبراهيم فرزقه إسماعيل عليهما السلام ، ثم وقعت مشكلة سارة مع هاجر ، وأوحى الله إلى إبراهيم أن يستجيب لرغبة سارة فخرج بإسماعيل وأمه ، وأسكنهما بواد غير ذي زرع ، ليس فيه ماء ولا بشر ، ثم استجاب الله لدعوة الخليل فأصبحت مكة مأهولة بالسكان ، ونشأ إسماعيل وترعرع بين العرب — من قبيلة جرهم — ، وعندما شب تزوج فتاة منهم ، وكان أبوه يتفقدّه بين الحين والآخر ، وعندما جاء أمر الله قام إبراهيم وولده إسماعيل ببناء بيت الله الحرام ، ثم أراهما الله المناسك كلها ، ومنذ ذلك الحين والناس يتوافدون إلى مكة المكرمة من كل فج عميق .

سبحان الله !! ما كان إبراهيم يدري ما الله فاعل به عندما خرج من العراق ، وكل الذي يدريه أنه رَهْنُ أمر الله تعالى ، وكان عليه السلام لا يرتبط بأرض أو وطن ، وشاء الله له أن يقيم منارة من منارات التوحيد في بلاد الشام ، وورث إسحاق النبوة عن إبراهيم ومن بعد إسحاق جاء يعقوب وهكذا إلى أن جاء سليمان عليه السلام وبنى المسجد الأقصى .

أما في مكة المكرمة ، فلقد جاء إبراهيم بهاجر من مصر ، وشاء الله أن تكون هاجر أمّاً للعرب ، وأرسل الله إسماعيل إلى عرب الحجاز واليمن فدعاهم إلى الحنيفية فاستجابوا له ، ولم تنقطع آثار هذه الدعوة حتى بعث الله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي كان من نسل إسماعيل عليهم أفضل الصلاة والتسليم .

وإذن فلقد توحدت بلاد الشام ممثلة بإسحاق مع شبه الجزيرة العربية ممثلة بإسماعيل ، وكان إبراهيم الخليل رائد هذه الوحدة الكريمة ، وأراد الله لخليله أن يكون له بيتان : أحدهما في القدس والآخر في مكة ، وكان إبراهيم يتنقل بين هذين البيتين وفي ذلك دليل واضح على أن هذه المنطقة كيان واحد ، لا يجوز أن يفتت أو أن يتحول

إلى دول وممالك .

وشاء الله تعالى أن يكون إسرائ محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وهناك يصلي بأنبياء الله ورسله إماماً ثم يهجر إلى السماء .

قال تعالى :

﴿ سَبِّحْهُ الَّذِي أُسْرِيَ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (٢٨) .

لو أراد الله لكان عروج رسول الله من مكة وليس من المقدس .. ولكنه جلّ وعلا شاء أن يكون الإسرائ بين مكة والقدس ، والعروج من القدس ، وفي هذا دليل على ارتباط القدس بمكة ، وقد أدرك أصحاب رسول الله هذه الحقيقة فسارعوا إلى فتح بلاد الشام وطهروا الأقصى من وثنيات الرومان ، وحاول أعداء الله احتلال القدس مرات ومرات لكن هذه المحاولات تحطمت أمام صمود المسلمين وقوة بأسهم . قلل صاحب خطط الشام :

« أدرك العالم كله منذ القديم أهمية موقع بلاد الشام ، فكانت هدفاً للغزاة الفاتحين .. جاءها الفراعنة من البحر والبر ، والبابليون والفرس من الشرق والشمال ، وغازان وهولاكو وتيمور لنك من الشرق ، ونابليون من الجنوب ومن الغرب بحراً ، وإبراهيم باشا المصري براً وبحراً أي من الغرب والجنوب الغربي ، وجيوش الحلفاء من الانجليز والفرنسيين والعرب — يعني الكاتب بالعرب جنود فيصل بن حسين — من الجنوب والغرب .

ورأت الشام طلعة عمر بن الخطاب ، وأبي عبيدة الجراح ، ونخالد بن الوليد ، وموسى بن نصير ، ونور الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، والسلطان سليم من الفاتحين . وعمر بن عبد العزيز ، وابن تيمية من المجددين . وبختنصر ، وهولاكو ، وجنكيز ، وغازان ، وتيمور من المخربين » (٢٩) هـ .

(٢٨) — سورة الإسرائ ، الآية : ١ .

(٢٩) — خطط الشام ، محمد كرد علي : ١/١٢ ، ١٦ بتصرف يسير .

أيها المسلمون في بلاد الشام :

إنكم تعلمون جيداً أن بلدكم مهبط للوحي ، وموئل للأنبياء ، ومقر للخليل عليه السلام ، وقد باركه الله من فوق سبع سماوات . قال تعالى :

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ .

وقال ﷺ :

« طوبى للشام إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه » (٣٠).

وسوف يشهد بلدكم نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان ، وسوف يصلي مأموماً بالمهدي ، ويحكم شرع الله في الأرض ، ويجاهد أعداءه وينتصر عليهم .

أيها المسلمون في بلاد الشام : كيف أسلمتم زمام أموركم لأدعياء الوطنية والقومية من الصليبيين والعلمانيين والباطنيين ؟! ... كيف صدقتم أن هؤلاء الملاحدة سيحررون فلسطين من اليهود المجرمين ؟!

كفاكم عقوبة من الله ماتعانونه من اضطهاد وتنكيل منذ أكثر من نصف قرن ... أن لكم أن تعلموا بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

آن لكم أن تعودوا إلى الله عودة صادقة ، وتوحدوا صفوفكم تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتأخذوا بكافة الأسباب التي تساعدكم على عودة بلادكم كما كانت أيام إبراهيم وإسحاق وداود وسليمان ... وكما كانت أيام الفتح الإسلامي المجيد ، وما ذلك على الله بعزيز .

(٣٠) — أخرجه الترمذي : ٣٣/٢ وقال حديث حسن . والحاكم في المستدرک : ١٨٤/٢ ، وقال الألباني حديث

صحيح ، سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٥٠٣/٥ .

فهرس الجزء الأول

الموضوع الصفحة

٧ مقدمة

لماذا منهج الأنبياء:

- ١٧ • إن طاعتهم واتباعهم فرض عين على كل مسلم
- ٢١ • عصية الأنبياء
- ٢٤ • ابتعث الله أنبياءه بالإسلام
- ٢٦ • الأنبياء دعوة إلى حزب الله
- ٣٢ • استدرك

نوح عليه السلام:

- ٣٩ • بعث نوح عليه السلام
- ٤٢ • كيف بدأ الشرك ١٩
- ٥٢ • دعوة نوح
- ٥٩ • موقف الملائكة
- ٦٤ • نوح وأهله
- ٦٩ • الطوفان
- ٧٤ • عبر وعظات من سيرة نوح

خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام:

- ٨١ • ما بين نوح وإبراهيم
- ٨٥ • صالح عليه السلام

المبحث الأول

٨٩ نبذة عن حياة إبراهيم

المبحث الثاني

ما كان بين إبراهيم وأبيه آزر

٩٣ أولاً : إبراهيم يخاور أباه

٩٨ ثانياً : براءة إبراهيم من أبيه

المبحث الثالث

صراع إبراهيم مع قومه

١٠٥ أولاً : مشكلة التقليد

١٠٨ ثانياً : دعوة إبراهيم لقومه

١١٢ ثالثاً : حوار مع الثمرد

١١٤ رابعاً : بين طاغوت إبراهيم وطواغيت عصرنا

١١٥ خامساً : إبراهيم يخطم الأصنام

١٢٣ • تعقيب

١٢٧ سادساً : إلقاء إبراهيم في النار

١٣٠ سابعاً : هجرة إبراهيم

المبحث الرابع

دروس وعبر

١٣٧ الدرس الأول : طغاة عصرنا أكثر ظلماً من طغاة قوم إبراهيم

١٤٠ الدرس الثاني : كان إبراهيم لا يخشى إلا الله

١٤٤ الدرس الثالث : المسلمون كالجسد الواحد

١٤٧ الدرس الرابع : مثالان من أصنام وأوثان هذا العصر

١٤٩

الدرس الخامس: عدم موالاة المشركين

١٥١

الدرس السادس: نوة إبراهيم وجرأته

الدرس السابع: كانت الدعوة إلى الله كل شيء في حياة إبراهيم ١٥٣

المبحث الخامس

لوط عليه السلام

١٥٧

أولاً - للاق قوم لوط

١٦٠

ثانياً - نظيرة اللواط

١٦٠

١ - إهانة من المرأة

١٦٠

٢ - التأثير في الأعصاب

١٦١

٣ - التأثير على المخ

١٦١

٤ - السويداء

١٦١

٥ - عدم كفاية اللواط

١٦٢

٦ - إغناء عضلات المستقيم وتمزقه

١٦٢

٧ - علاقة اللواط بالأخلاق

١٦٢

٨ - اللواط وعلاقته بالصحة العامة

١٦٢

٩ - التأثير على أعضاء التناسل

١٦٢

١٠ - التفود والدوسنطارية

١٦٣

١١ - أمراض الزنا

١٦٤

ثالثاً - رد قوم لوط على نبيهم

١٦٦

رابعاً - لماذا أخبر الملائكة إبراهيم بمهمتهم قبل لوط

١٦٩

خامساً - هلاك قوم لوط

المبحث السادس

إسماعيل عليه السلام

- أولاً — ولادة إسماعيل ١٧٩
ثانياً — رواية ابن عباس ١٨٠
ثالثاً — بناء البيت ١٨٩

المبحث السابع

قصة الذبيح

- أولاً — قصة الذبيح ١٩٧
ثانياً — من هو الذبيح ٢٠٢
١ — محمد بن كعب القرظي ٢٠٢
٢ — السيوطي ٢٠٣
٣ — محمد الأمين الشنقيطي ٢٠٤
٤ — ابن القيم ٢٠٥
٥ — قرائن أخرى ٢٠٦
ثالثاً — الرأي الآخر ٢٠٧

المبحث الثامن

من فضائل إبراهيم عليه السلام

- أولاً — كان إبراهيم أمة ٢١١
ثانياً — ملة إبراهيم ٢١٣
ثالثاً — واتخذ الله إبراهيم خليلاً ٢١٦
رابعاً — أحاديث نبوية في فضائل إبراهيم ٢١٦
خامساً — أهمية بلاد الشام ٢٢١

رقم الإيداع ٤٨٣٤ / ٨٨

هجر

الطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

المنشأة : ٤ ش. ترعة الزمر - المهندسين - حيصة

المطبعة : ٦ ، ٢ ش. عبد الفتاح الطويل - أرض اللواء

☎ ٣٤٥١٧٥٦ - ص. ب. ٦٣ إمبابة

تطلب جميع منشوراتنا
في
جمهورية مصر العربية
من دار الصفوة بالقاهرة
٤٢ ش جزيرة بدران أول شبرا